روافد المعرفة

رجال من التاريخ

(الجزء الأول) علي الطنطاوي

مؤسس المشروع
د. طلال المكي

نائبة المؤسس
أسماء القحطاني

رئيسة مشروع روافد المعرفة
سهام الشريف

نائبة مشروع روافد
شهد ياسين

رئيسة لجنة تقنية المعلومات
أشواق الجميعة

رئيسة المصممين
آلاء الدوخي

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابة أجمعين

تلخيص كتاب

رجال من التاريخ (الجزء الأول)

المؤلف: الشيخ علي الطنطاوي

الفهرس

الفهرس ..... (2)
المقدمة ..... (3)
الفصل الاول ..... (4)
الفصل الثاني ..... (10)
الفصل الثالث ..... (18)
الفصل الرابع ..... (28)
الفصل الخامس ..... (34)

المقدمة

إن في كتب التاريخ والأدب والمحاضرات والرحلات آلافاً من سير العظماء ليست في كتب التراجم على كثرتها .
لما كتب لي أن أزور القارة الهندية وأندونيسيا رأيت للمسلمين فيها تاريخاً ما كنت أعرفه ، ولم يدرّس بالمدارس والعجب ممن يزعم أن الإسلام إنما انتشر بالسيف !!

هل كان مع الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة سيف ؟ والمجتمع الإسلامي الأول ؟ الذي كان مع محمد فيه أبو بكر وخديجة وعلي وبلال وصهيب وآخرون ممن شرفهم الله بالسبق إلى الإسلام هل كان معهم سيف ؟

الإسلام انتشر بالسيف ! إنها مقالة جاهل بالطبع البشري على قائلها أن يخجل منها وأن يتوارى بها .

الإسلام انتشر بالسيف ! إنها دعوى بلا دليل والدليل القائم عليها لا معها ، إن الإسلام عقيدة ، والعقيدة مزيج من عقل وعاطفة ، فمن سمع بأن العاطفة تجيء بالقوة والبطش ؟
(لا إكراه في الدين) البقرة: 256

إن تاريخنا أعظم تاريخ ولكننا أمة تجهل تاريخها ، هذا التاريخ ليس لأمة مثله ، هذا التاريخ الذي يفيض بالحب والنبل والتضحية والبطولة والإيمان .
وليس التاريخ السياسي وحده بل التاريخ العلمي أيضاً أن تاريخنا السياسي أنظف من كل ما يماثله من تواريخ الأمم ، ولا يخلو على ذلك من أمور تقتضيها طبيعة البشر يخطئون ويصيبون ويحسنون ويسيئون ليسوا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

علي الطنطاوي .

الفصل الأول

سيّد رجال التاريخ

من صور الهجرة :

نحن الآن في مكة والحرب فيها قائمة بين التوحيد والشرك ، بين محمد وقريش وبذلت قريش قوتها ، ومالها في أن تمنع هذا الخير عن الدنيا .

قالوا له تعال نملكك إن شئت علينا ، ونمنحك أموالنا ونجعلك سيد هذا البلد كله ، بعدها انطلقوا يؤذونه وتوعدونه لعل الترهيب يفعل فيه ما لم يفعل الترغيب ، رموا في طريقه الشوك وهو ماش ، ألقوا عليه أحشاء الناقة وهو ساجد ، رموه بالحجارة في الطائف وسلطوا عليه سفهائهم وكان جوابه (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون) وآذو المسلمين الأولين ليفتنوهم عن دينهم وعذبوهم لكنهم احتملوا في سبيل الله الضرب والحرق والجوع والجرح والعطش والسهر ، تشغلهم لذة المفاجأة عن لذعة العذاب ونشوة الأمل بالجنة عن شقوة الألم في الدنيا .

ودعاهم الرسول إلى فراق الوطن وترك الأهل فراراً بدينهم إلى بلاد ليسوا منها وليست منهم ، إلى الحبشة ، وأوغلت قريش في كفرها وصدها وعنادها ، ولكن هل تقدر قريش أن تطفىء نور الله !!

إن البخار الذي من طبعه الانطلاق إلى العلاء لا يحصر في زجاجة وإن حصرته وجد منفذاً أو مزق الإناء ، وكذلك صنع الإسلام . هاجر المسلمون جميعاً ولم يبق في مكة إلا النبي ورجلان أحدهم سيد الكهول أبو بكر الصديق مرافقه في السفر والآخر وكيله سيد الشباب علي بن أبي طالب في مكة ، اتفق زعماء قريش على ارتكاب أبشع جريمة في تاريخ الجنس البشري جريمة لو تمت لما كانت هناك حضارة إسلامية عريقة !!

حين اجتمعوا أمام باب بيته متسلحين بالسيوف يريدون قتله ، هنا يظهر نصر الله لأوليائه عندما خرج يشق صفوفهم يقتحم الجموع ، أردوا قتله وأراد الله حياته وأدركت قريش الحقيقة بعد ما مضى محمد وعم الصريخ مكة وضواحيها وخرجوا فرساناً ومشاة مذعورين يطلبونه .

مالكم ياناس ؟! قالوا : خرج محمد ! وماذا تطلبون منه ؟ أخذ أموالكم ؟ قالوا : معاذ الله إنه الأمين المأمون أداها عن آخرها ، أجرم جريمة فأنتم تطلبونه بها ؟ قالوا : حاشا لله إنه أحس الناس خلقاً وأطهرهم يداً ، فلماذا تطلبونه ؟ قالوا : سيجند

الناس لمحاربة أصنامنا وآلهتنا وتحطيم مانعبد لكي نعبد الله الواحد الأحد دون سواه . وهاجت قريش ضد محمد ووضعت الجوائز مائة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً . وبعد أن فارق محمد وصاحبه الغار لحقهم فارس وخاف أبو بكر وقال : والله ماعلى نفسي خفت ولكن عليك ، فأجاب الرسول الكريم بالكلمة التي تجمع معجزات الإيمان : إن الله معنا .

إن جهة معها الله لا تنكسر ولو كان ضدها الوجود كله !

حتى أشرف على المدينة ، وأقبلت جموع كالجموع التي خلفوها في مكة ولكن تلك كانت للشر تنادي بالموت لمحمد ، وهذه للخير تنادي بالحياة لرسول الله ، وكانت هذه نقطة التحول في التاريخ الإسلامي على أبواب المدينة وقد خرج أهلها جميعاً كباراً وضغاراً نساءاً ورجالاً يستقبلون الرسول :

طلع البدر علينا .. من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا .. ما دعا لله داع

هاهم الناس يسألون أيهم محمد ؟ لا يعرفون لأنه لم يكن ملكاً يلبس الحرير ولا على جبينه التاج بل كان عبداً متواضعاً يلبس مايلبس الناس ويأكل مايأكلون .

وحسبوا أن أبا بكر هو النبي ، فكانوا يسلمون عليه وهو يشير إلى الرسول بيديه : ها هوا ذا محمد .
وأقبلوا يدعونه لينزل فيهم يتسابقون على هذا الشرف ، فماذا صنع ؟ إنه لا يريد أن يؤذي أحداً بالرفض فقال : اتركوا الناقة فإنها مأمورة ، ومشت الناقة حتى بركت عند دار أبي أيوب الأنصاري .

نحن الآن مع محمد في المدينة ، إنه يؤسس الدولة الجديدة فيما ترونه يبدأ ؟ بمهرجان فخم يبايعونه فيه بالملك ؟ إنه لا يريد الملك ! يبني ثكنة باحتفال عظيم ويجيش جيشاً ؟ إنه لا يبتغي العلو في الأرض ! يفرض الضرائب ؟ لا ولكن بدأ بعمارة المسجد . بدأ بالمسجد كما بدأ الوحي بآية القرآن والتعليم بالقلم ، بدأ بالمسجد والمسجد في الإسلام هو المعبد رمز الإيمان وهو البرلمان رمز العدل وهو المدرسة رمز العلم ولم يغصبه بر شراه بالمال وذلك رمز الإنصاف ولم يأمر ببنائه وقعد بل شارك أصحابه العمل وحمل الحجارة بيده ، والمسجد لم يغصبه بل اشتراه بالمال وساعد وهذا رمز الديموقراطية وبناه من لبن وطين بلا زخارف ولا نقوش وهذا رمز البساطة ، فكان من هذه الرموز الإيمان والعدل والعلم والإنصاف والديموقراطية والبساطة مجموعة من شعائر الإسلام .

هل ترونها أثرت هذه الأهوال كلها في عزيمة محمد ؟ لقد عرضوا عليخ أقوى المغريات أن يملكوه ويعطوه الأموال ، وقدموا إليه أجمل النساء ليتزوج بمن شاء ، فكان موقفه أن قال لعمه (والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لأترك هذا الأمر ما تركته) واستمر هذا الأمر لسنوات طوال فبلغ الطائف وقصد سادة ثقيف الثلاثة لعله يلقى عندهم ما لم يلق زعماء مكة ، لكنهم أغروا السفهاء يلحقونه ويسبونه وهنا بلغ الهول هذا المبلغ دعا الرسول بدعاء ((اللهم إني أشكوا

إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ لا أبالي ولكن عافيتك هيا أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ،وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل بي سخطك ، لك العقبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك))

ها هو قد جرب الدعوة في مكة والطائف ، فلم ينجح وصبر 13 سنة !

فماذا يصنع ؟ يهاجر ليفتح للدعوة باب آخر تطل منه على الدنيا ، وكان هذا الباب هو يثرب ، لم يترك إلا علياً نائماً في فراشه ، وليؤدي الودائع التي كانت عنده لقريش ، وهاجر متخفياً مع صديقه ، دخل المدينة لا يرفرف على رأسه علم ، ولا يمشي وراءه موكب فيا أيها المسلمون تذكروا بأن على المسلم كلما ضاق عليه في حي أو بلد أن يهاجر إلى حيث الظفر والعزة والحرية . وحيث ينادي المنادي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فذلك وطن به سبل المسلم .

معلمة الرجال

السيده التى أثبتت للدنيا منذ أربعة عشر قرناً أن المرأة يمكن أن تكون أعلم من الرجال وأن تكون أرجل من الرجال وأن تكون سياسية ومحاربة .

لم تتخرج من الجامعة ولم يكن هناك في أيامها جامعات ولكنها تدرس أثارها في كلية الآداب وتقرأ فتاواها في كليات الدين .

امرأه ملأت الدنيا وشغلت الناس على مر الدهور ،فلقد تولاها في طفولتها شيخ المسلمين وأفضلهم !! أبوها الصديق ، رعاها في شبابها خاتم الرسل وأكرم البشر زوجها رسول الله (عائشه رضي الله عنها)

كانت امرأه كاملة الأنوثه تؤنس الزوج وترضى العشير وكانت عالمة واسعة العلم .

فهي أفضل امرأه في الإسلام بعد خديجة و فاطمة .

أما (خديجة رضي الله عنها) لها عقل لا توازيه عقول المفكرين من الرجال وهي أول من رعى هذا الدين لما كانت نبته ضعيفه و ماتت قبل أن تشهد كيف صارت هذه النبتة دوحة باسقة امتدت في المكان حتى أظلت الدنيا .

أحبت محمد وأخلصت له ، كانت له خير زوج و كانت له مثل الأم وكانت له درعاً من سهام الحياة .

أما (فاطمة رضي الله عنها) فلأنها على نادر سجاياها وعظيم مزاياها بضعة من رسول الله وحسبها ذلك فضلاً على النساء.

تزوج الرسول نساء كبيرات ثيبات وتزوج بكراً وكانت أحبهن إليه عائشة وكانت آثرهن عليه اختار الإقامة عندها لما مرض وتوفي بين سحرها ونحرها ودفن في بيتها وكان ينزل عليه الوحي وهو معها وكان براً بها .

أما علمها فقد بلغت فيه الغاية وكانت بلاغتها تعادل علمها وكانت كريمة النفس واليد صبرت مع الرسول على الفقر والجوع لم يزعجها الفقر ولم يبطرها الغنى لأنها لما عظمت نفسها صغرت عليها الدنيا .

كانت شابة جميلة تشعر بشبابها وجمالها ومحبة الرسول لها وكانت مدللة وكانت تغار ولكنها غيرة مقبولة .

لقد مر على عائشة أربعة عشر قرناً ولم تعرف الدنيا امرأة مثلها رضي الله عنها وأعلى في الجنان منزلها ...

سيدة جليلة

سيدة أبوها وزوجها عظيمان وهي عظيمة في مواهبها ومواقفها وفي أعمالها سيدة ذات مبدأ وفتّ له وثبتت عليه وسيدة شاركت في السلم وفي الحرب سيدة كانت ربة بيت صبرت على مره ولم تبطر بحلوه سيدة كان له عقل كبير ونبل القلب مالم يكن مثله إلا للقليل من عظماء الرجال وفي قصتها عبرة للنساء وآمل لمن ابتليت بالفقر وإثبات لمن يحتقر النساء وبيان لمن لا يريد بالمرأة إلا أن تكون متعة لا هم لها إلا زينتها وتبرجها .هذه السيدة يا أيها السادة ؛ أبوها المسلم بعد رسول الله شيخ الإسلام أبو بكر وزوجها أول من سلّ سيفاً في سبيل الله رائد الجهاد : الزبير وابنها الفارس الشهيد أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير وهي أسماء ذات النطاقين العجوز التي وقفت يوم مقتل ابنها موقفا لا تقوى عليه صناديد الرجال أسلمت بعد ١٧ إنسان وبايعت الرسول إنها لما رأت الإيمان قد تعارض مع أقوى عواطف النفس البشرية حب الأم غلبت إيمانها على عاطفتها إن الإسلام لا يحول أبد دون عواطف الخير والشر ولا يقتل أبداً دوافع النبل في النفوس

فلولا المرأة ما استطاع الرجال خوض هذه الغمرات

كانت حامل يوم الهجرة فوضعت عبدالله وكان أول مولود في الإسلام

إنها صبرت على هذا كله فكانت العاقبة أنها اغتنت وانصبت عليها وعلى زوجها النعم

وكذلك كان المسلمون كانوا رجال دنيا ودين ومال وتقى كانو جناً في النهار ورهباناً في اليل

أما هذه السيدة الفاضلة فلم تخجل أولا من فقر زوجها ولم تبطر بغناه وبقيت كما كانت امرأة خير وبر وإحسان

وكانت في شجاعتها أخت الرجال مثل حماتها صفية بنت عبد المطلب شاركت يوم اليرموك في القتال وفعلت فعل الأبطال وكانت فصيحة بينة وأديبة شاعرة ولها في رثاء زوجها مقطوعات

هذه أسماء السيدة الجليلة التي يتشرف بها تاريخ الأمة الذي تكون سيرتها فيه !.

الفصل الثاني

أميرُ المؤمنين في الحديث

من منا يستطيع أن يحصي جميع الكتب التي ألفها المسلمين وعلى رأسهم "هولاكو" الكتاب الذي نعده بعد القرآن وهو صحيح البخاري ولكن لم يبلغ أحد منهم ما بلغ البخاري حتى ولا (المحدث الاكبر) أحمد بن حنبل .. إنّ علم الحديث من حيث السند وهو (طريق الرواية)؛قد بلغ الكمال ما لا زيادة عليه.وها نحن قد سمعنا في حديث مضى قصة فتح بخارى على يد القائد الكبير قتيبة،ولكن بخارى دخلت الإسلام ولن تمضي عليها مدة قصيرة حتى صارت من أكبر معاقله وأكبر حصونه ولقد حاولت فرنسا مراراً وتكراراً أن تجعل الجزائرين فرنسيين بإعطائهم الجنسية الفرنسية ولكن الفارسي والصيني يصير مسلماً،لأن الفرنسية(جنسية)و(قومية) والإسلام عقيدة وتوحيد....

لقد ولد الإمام البخاري بعد فتح بخارى بمائة سنة وكان أبوه قد دخل الإسلام وكان زاهدا متقشفاً كريماً متواضعا ًجنديا محاربا ويحبو السائلين ولايرد أحداً!!وقد بلغ من الجاه والعظمة من المنزلة لم يبلغها الملوك لقد بدأ بحفظ الحديث وهو ابن عشر سنين وثم رحل في طلب العلم،، وإن رحلات البخاري لو تجمع لزادت عن محيط الكرة الارضية مرتين وقضى حياته في رحلاتٍ دائمة فلم يدع محدثاً ولا عالماً إلا أخذ منه ما عنده حتى بلغ عنده عما أخذه عن أربعة آلاف شيخ!!وقد أجمعوا عليه إنهُ الأستاذ الأكبر لعلم الحديث وكان أستاذته يرجعون إليه.! حفظ مليون حديث!وبقي في التأليف ست عشر سنة والذي جمع فيه2761حديثاً..هذا هو(صحيح البخاري)الذي اتفق المسلمون على أن كل مافيه صحيح السند وانه خير كتب الحديث والذي اعتنى به أجل عناية فشرح ثلاثه شروحات كبيرة(شرح ابن عسقلاني،شرح العيني،شرح القسطلاني)؛؛ومازال العلماء يشتغلون به ويقبلون على الإستفادة والعمل به.مع العلم انه جاء فيه أو غيره ما يخالف القرآن..ولم ينجِ البخاري من (المحنة) محنة خلق القرآن الذي من أجلها فارق بلده ومات في سمرقند الذي فتحها قتيبة مات ولم يمت كتابه واسمه وسيظل ابداً مابقى على أرض المسلمين.

(جزاء الله عن حديث نبيه أفضل ما يجزى به العلماء العاملين)

العَالِمُ النّبِيلُ

بداية هذه المقالة أود أن أطرح عليكم سؤالاً؟! هل يستطيع معلم أن يدخل صف يوجد فيه العديد من الطلاب بمراحلهم المختلفة ويقول قوله ويفهمه ويرضى الجميع؟! كافة الإجابات سوف تكون بـ(لا) إذن لا أحد يستطيع أن يقنع الجميع بأرائه و أقواله.حديثا اليوم عن شخصية ليس فيها من التقى والصلاح ولا في الإجتهاد والفقه ولا في الزهد والورع شخصيتنا امتازت بالنبل والسيادة والعلاقات الإجتماعية القوية رجل دين كل هذه الصفات في رجل واحد سلطته وقوته سخرها لرد المظالم وإقامة الحق وكف الأذى ولكن كل هذه السمات كان يعمل على نصر مذهب المعتزلة وإيذاء أئمة السنة!

إذا أنا أتكلم عن (أحمد بن أبي داؤد)

من بعض مواقفه أسردها على سبيل التمثيل: غضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني الفارس المغوار العربي وقدم أحمد بن أبى داؤد ليشفع له فلم يقبل المعتصم فجلس خلاف مجلسه المعتاد فقال المعتصم مجلسك يا أبا محمد !قال: ماينبغي لي أن أجلس فيه لأن الناس تظن إن جلست فيه يحق لي من أمير المؤمنين ماأشفع به. قال: عد إلى مكانك .فقال: مشفعاً أو غير مشفع؟ قال: بل مشفعاً.قال : إن الناس لا يعلمون أنك عفوت عنه حتى تخلع عليه فأمر فخلع عليه فقال: إن له راتب كل ستة أشهر فمر له به أن تقم مقام الجائزة فأمر له بها فخرج والخلع عليه والمال بين يديه .فناداه رجل: مرحباً بك ياسيد العرب قال: اسكت ويحك : سيد العرب ابن أبى داؤد وله موقف عجيب حينما اشتد على المعتصم المرض فشكى إليه المعتصم مايزول به الألم فقال في السجن مظلومون ودعوة المظلوم مستجابة فأمر بإطلاق صراحهم ليدعو لك ففعل ذلك فقال له: إنهم يعودون إلى أهليهم وأيديهم صفر رد أليهن أموالهم فأمر بذلك وله أخبار كثيرة لا يتسع لنا ذكرها ولو أن كل عالم يتصل بالحاكم ويتبع سلطته وقربه مثلما فعل أحمد بن أبى داؤد لصلحت أحوال الأمة لم يبلغ منصبه هذا بواسطة أو شفاعة أو نسب بل بنبوغه وعلمه ، كان من أبلغ بلغاء عصره كان راوياً وشاعراً كان يحسن التصرف ومخاطبة الملوك كان يحمي الشعراء والأدباء عادى رجلين كبيرين الأول من أجل الدنيا وهو الشاعر الوزير أبو زيات والثاني من أجل الدين وهو أحمد بن حنبل عاش هذا البطل حتى أيام المتوكل فأصيب بالفالج وعزل وبقي أثره الطيب النبيل حتى بعد عزله ولم تؤثر عليه كما مُدح بمدائح لم يمدح بها أحد قبله منها،،

فكان قول مروان بن أبى الجنوب :

لقد حازت نزار كل مجد

ومكرمة على رغم الأعادى

فقل للفاخرين علب نزار

ومنهم خندف وبنو أياد

رسول الله والخلفاء منا

ومنا أحمد بن أبى داؤد

ولما مات قام على قبره ثلاثة من الشعراء وقال كل منهم أبياتٍ عاجزين عن إعطائه حقه فيها.

الفقيهُ الأمِيَر

نحن الأن سنتكلم عن دولة قبل ألف ومائتي سنة أشُهد لها بالحضارة أطلق عليها تونس الخضراء من خلال سفر طالب إلى المشرق للدراسة والتحصيل في أيامنا هذا الطالب يذهب للغرب من أجل الدراسة مستبعداً دول المشرق من فكره ولا يعلم حقيقة أن الحضارة بدأت من هنا من الشرق وذهبت للغرب وهكذا حتى رجعت للشرق! سنعود للوراء،شاب عمره ثلاثون سنة غريب عن تونس أصله من نيسابور ولد في ديار بكر ذهب أبوه إلى المغرب في حملة للقضاء على ثورة البرابرة نشأ وترعرع وأخذ العلم في تونس. حتى أتى ذلك اليوم الذي اجتمع فيه أهل تونس لوداعه عندما أراد الرحيل من أجل العلم وليس كما هو الحال الآن يذهبون لنيل المتع بطرق سهلة ومواصلات متاحة كان حالهم في السفر شاقاً طويلاً يمتد لأشهرٍ طويلة كان ذلك في سنة 172 للهجرة.ذهب هذا الشاب في رحلة بين البر والبحر كان آنذاك لايوجد للعلم سوى مركزان' _جامعة محافظة تعني بـ(النقل وبدراسة النصوص)مقرها المدينة واستاذها المالك.

_ جامعة (البحث والحقوق) مقرها العراق وأستاذها أبو حنيفة.

قصد الشاب المدينة ليتلقى العلم الكامل كان العلم يقام بالجوامع ولزم الإمام مالك كانت طريقة الإمام مالك في تدريسه لطلابه الإستماع خالية من المناقشات وطرح الأسئلة والتوقعات عكس العلماء في العراق هذا الشاب لم يرضى بهذا الحال فكان يسأل ويلح حتى يحصل على الإجابة فضجر مالك من أسئلته فقال له عليك بالعراق.

لكنه استمر مع الإمام مدة سنتين ثم قرر الذهاب للعراق وطلب من إمامه أن يوصيه فقال له: "أوصيك بتقوى الله، والقرآن، والنصيحة للناس" كان آنذاك بالعراق قد توفي أبو حنيفة وولى مدرسته لأبو يوسف ومحمد.

الإمام محمد قد تصدر للتدريس والبحث وكان من تلاميذه الإمام الشافعي، أستاذ الإمام أحمد.تلقى هذا الشاب العلم بدروسه العامة والخاصة لنتوقف قليلاً ...!

أستاذ كبير تأتيه باليوم الآف من المسائل ليفتي فيها ويقدم عليه شاب يطلب منه بعض من وقته من أجل دروسه الخاصه.هل يوافق؟! نعم وافق على ذلك وأسكنه بغرفة في بيته دون مقابل لأن العلم كان يقدس عندهم ويعتبرونه عبادة لله خلاف مانحن عليه الآن الوقت الراهن نطلب العلم من أجل الوظائف ومن أجل منصبٍ.لزم هذا الشاب مع الإمام أحمد وكان هو أول من جمع بين مذهبين (مالك ' أبو حنيفة). قرر الرحيل مرة أخرى وكان يريد مصر كان هناك عالمان من تلاميذ الإمام مالك هما أشهب وابن القاسم كانا مختلفين في المعاملة (أشهب ذو حدة وفي لسانه طول،وفي ابن القاسم أناه ولين) لكن اجتمعا كليهما في مخالفة إمامه لبعض المسائل.فقرر الشاب أن يلازم أشهب حتى حصل موقف بينهما وذهب لإبن القاسم. قرر الشاب جمع

كل ماتلقاه من العلماء بالمدينة والعراق ومصر في(مدونة) سماها "الأسدية" وقدر الله لهذا الكتاب أن يكون أساس الفقه المالكي كله. وبعد مرور عشرين سنة أفناها بالعلم والدراسة قرر العودة إلى القيروان عاصمة المغرب.كان عمره قد قارب الخمسين فعمل بالتدريس ليعطي التلاميذ مثل ما أعطاه أساتذته.

أمضى عشرين سنة في العلم حتى أتآه منصبـه فعمل بالقضاء مع أبي محرز. كنت أتحدث عن طالب علم ولكن من هو ؟!!

[إنه أسد بن الفرات].

أسد طالب العلم، أسد الفقيه، أسد القاضي. إذاً ماهو خبر أسد القائد الأمير ؟!!

آنذاك كان أطراف البحر المتوسط من نصف الساحل الشرقي إلى نصف الساحل الغربي والساحل الجنوبي يحكمه المسلمون والشمالي تحت حمايتهم، وهناك عهود تربطهم بإيطاليا وصقليه.ولكن صقليه نقضت العهد وحبست أسرى المسلمين وأساءت لهن فتردد الحاكم هل يعلن الحرب أم لا فسأل القاضيان ،فأجاب أسد وكان يوافق على إعلان الحرب وطلب من الأمير أن يذهب مع المجاهدين فأبى خوفاً عليه لكنه ألح فولاه إمارة الحملة فكان أول من جمع المنصبين (قاضي و أمير).جُهز الأسطول وكان مؤلف من ثمان وتسعين قطعة وعشرة الآف رجل وتسع مائة فارس.خرج الناس في ميناء سوسة، وتكلم الحاكم والخطباء ثم تكلم الأمير قائلاً بحكمة وعلم " والله يامعشر الناس ماولى أب ولا جد ولاية قط وما رأى أحد من أسلافي مثل هذا قط ،وما بلغته إلا بالعلم فعليكم بالعلم إتعبوا فيه أذهانكم، وكدو به أجسادكم ، تبلغوا بـه الدنيا وَ الأخرة " الجميع يتسائل كيف لهذا الرجل العلم بالحرب وأمور القتال؟!! لكن ياسادة قد نجح نجاح منقطع النظير. لما طالت أيام المعركة وقلت المؤن ومل الجند وتحركت قوات الفساد عازمين على خضوع الحرب والعصيان! وحفوا بالقاضي أسد بن الفرات .وأقبل زعيمهم أسد بن الفرات قادم يعلن رغبة الجند بالعودة إلى ديارهم هي رغبة ظاهرها وباطنها مختلفة.فقابلها أسد بالحكمة وذهب يبين لهم قرب النصر وعظيم الأجر فما ازدادو إلا عتواً.وتقابل الأسدان هنا فعل الأميرشيءٍ لم يفعله أحد قبله كان يمتلك قوة سماوية هي {قوة الإيمان}.أخذ السوط من إحدى الحرس وضرب الثائر على وجهه هاتفاً للجند ,,إلى الأمام,, كان النصر حليفهم وكان ابتداء الدولة الإسلامية بعدما تم فقد أغلى ثروة وهو استشهاد أسد بن الفرات وهو يحمل راية النصر.

هوى طاهر الأثواب لم تبق روضة

غادة ثوى إلا اشتهت أنها قبر

عليك سلام الله وقفاً فإنني

رأيت الكريم الحر ليس له قبر.

(بَانى مُرَّاكِش)

هذا الحديث عن عبقري من عباقرة التاريخ الإسلامي .. أعود بكم إلى القرن الـ 5 وأذهب بكم إلى صحاري المغرب الأقصى.

وقد كانت هذه الصحاري لقبائل "زناته" فزاحمتها من الجنوب قبائل جديدة وكانوا في الأصل على جهالة، فأحب زعيمهم أن يعلمهم الإسلام وأن ينور به قلوبهم، فاختار الشيخ عبدالله الجزولي وكان هذا الشيخ سبب هداية هذه الخلائق ولم يكن سبب هذا النجاح أنه كان أعلم الناس وأنه كان أفصحهم ولكن كان سببه الأوحد أنه كان مؤمنًا حقًا ولم يكن يطلب الجاه ولا المال بل يطلب الله والدار الاخرة.

وكانوا يعرفون بالملثمين فسماهم المرابطين وتوفى هذا الفقيه بعدما أسس الأسس وأقام الدعائم لدولة المرابطين ومن هنا ترون أن عالمًا وحيدًا يدعوا إلى الله، يحيي به الله أمة كاملة.

وانفرد أبو بكر اللمتوني بعد موت الفقيه بالأمر، فجاء بشاب من بني عمه يوسف بن تاشفين فولاه قيادة شطر من الجيش، ليتم العمل الذي بدأه الجزولي ولا نعرف من أين جاء تاشفين ولا يحدثنا التاريخ عن ذلك شيئًا ولا نعرفه إلا يوم ولى هذه القيادة.

ولم يكن للمرابطين إلا الصحراء يعيشون فيها بدوًا ويسيطرون على قبائلها فسار بهم ابن تاشفين إلى مدن المغرب فافتتحها ثم توجه إلى الجزائر ثم تونس وكان كل بلدة أمير يظلم الناس فافتتحها وأقام عليها في كل بلدة أميراً يحكم بكتاب الله وسنة نبيه .

عاد ابن تاشفين وسكن في مراكش سنة 465 هـ وكان نحيف الجسم، أسمر اللون، دقيق الصوت، يحسبه من يراه ويسمعه رجلاً ضعيفاً مسكينًا، فإذا خبره وجده الأسد قوة ومضاء وكان محاربًا ليس له نظير وقائداً من الطبقة الأولى من القواد وكان خيرًا عادلاً ويميل إلى أهل العلم ويكرمهم ويتبع حكمهم ماداموا يتكلمون بلسان الشرع، وكان يحب الصفح، وكان زاهدًا متقشفًا لم يستأثر بمطعم ولا مشرب لم يعرف حياة السرف والترف وكان قوي الجسم وبقي على ذلك حتى قارب الـ 100 عام .

حتى هذا الوقت الذي انتقل فيه المغرب الإسلامي من الفرقة والإنقسام إلى الوحدة والقوة ولكن كانت الحال في الأندلس على العكس فقد زالت دولة الناصر والمنصور من بعده وقامت هذه الحكومات الصغيرة تعتدي كل جارة منها على جاراتها وبلغ الأمر إلى أن كل دولة منها تستعين على أختها بالأسبان، بالعدو المشترك!

وأخذ الأسبان يستفيدون من هذا الخلاف ويأخذون من أطراف البلاد الاسلامية وجعلت المدن تتساقط في أيديهم واحدة بعد واحدة من بعد طليطلة وهي قلعة الإسلام توجهوا جميعًا إلى المغرب واستنجدوا بابن تاشفين ولبى الطلب وحشد جيشًا ضخمًا وجاز به البحر إلى الأندلس، ومشى الجيشان إلى المعركة الفاصلة التي اجتمعت فيها جيوش النصرانية كلها في جانب وجيوش الإسلام في جانب وكان اللقاء في سهل الزلاقة وكانت الوقعة يوم الجمعة في 499/7/15 هـ وكانت المعركة من أعظم المعارك الفاصلة في تاريخ البشر؛ فقد اجتمعت فيها لأول مرة قوى الإسلام كلها في الأندلس والمغرب في وجه قوى النصرانية كلها في أسبانيا وكان ابن تاشفين يومئذ شيخاً في نحو الـ 80 من عمره.

ياسيداتي وسادتي :

إن تاريخكم فياض بالبطولات والمفاخر والمكارم، ولكنكم لا تكادون تعرفون تاريخكم.

الفصل الثالث

الصقر الأموي

هل قرأتم قصص المغامرات الكبرى أو رأيتم أفلامها ؟ تصوروا أغرب قصة ابتكرها خيال أديب قصة تاريخية قصة رجل رمته الحياة بأدهى الدواهي ونزلت به إلى الحضيض فقفز قفزة واحدة من حضيض الإخفاق إلى ذروة النجاح .كانت دمشق في عهد مظلم من عهودها السود يحكمها صغار النفوس ، كبار المطامع والأهواء ، جبنوا عن المكارم والفتوح ، جمعوا بين الطغيان على الناس والعبودية للشيطان همهم حفلات اللهو يبذرون أموالهم على المغنين و على النساء والخمور .

أولئك هم بعض ولاة بني أمية في أواخر العهد نسى الأحفاد سيرة الأجداد ونزعت أمية ثوب الجهاد وغابت عن سجلاتها تلك الأسماء الكبيرة فلم يعد فيهم مثل معاوية ولا عبدالملك ولا الوليد ولا في قوادها قتيبة والمهلب واعتلى سرير الخلافة خلفاء صغار ضعاف ظلمت أمية وفجرت وفتشت أمية عن الرجل الذي يعيد سيرة أخلافها الأول : معاوية وعبدالملك و مروان وكان مروان كاسمه صخراً صلداً لكنه جاء مع الأسف والنار قد اندلعت وامتدت حتى وصل ما بين المشرقين وضاعت أمية إلى الأبد.

وضاع العرب وما أضاعهم إلا الإنقسام والعصبية الجاهلية فخلت من أمية القصور وامتلأت بالقبور وتتبعت الدولة الجديدة بني أمية قتلاً و حرقاً ولم يفلت إلا شاب واحد وهو البطل الذي أحدثكم عنه : عبدالرحمن بن معاوية بن هشام وأخوه الصغير وخادمه بدر كان لبني أمية موقف مقطوع فيه الأمل ولكن عبدالرحمن لم ييأس كانت له أعصاب قدت من الفولاذ وبصر كأنه ينظر من وراء الغيب و عقل لاتدنو إلى إدراك تفكيره المعقول رمى ببصره إلى البلدان فوجدها مغلقة فلم يجد إلا الأندلس ولكنه كان في العراق و أين أنت يا أندلس من العراق ؟

لم ييأس ومشى إلى الأندلس ودون الأندلس سدس محيط الأرض واعترضه الفرات فألقى بنفسه يسبح ومعه أخوه وكلت قوى الطفل ونادوه بالأمان فلم يسمع نصح أخيه فذبحوه أمامه ولم يبقى معه إلا غلامه بدر.

وانطلق يمشي في الليل ويختبئ في النهار من قرية إلى قرية والطريق لا ينتهي فـ لعبدالرحمن أن يمشي من أطراف العراق إلى الشام ومن الشام إلى مصر ومن مصر إلى طرابلس ومن طرابلس إلى تونس ومن تونس إلى الجزائر ثم إلى أقصى المغرب ثم يعبر البحر وهو ضعيف مطارد ما معه إلا غلامه بدر.

ووصل إلى الأندلس وكانت الأندلس في معزل عن الدولة واستطاع هذا الطريد الشريد أن يرمي نفسه في المعمعة وأن يكون كأبرع سياسي في الدنيا وأن يكون قائداً كأبرع قائد في التاريخ يخوض المعارك والحروب حتى صار سيد الأندلس .

إن سيرة عبدالرحمن الداخل أروع سيرة في تواريخ الأمم الرجل الطريد الذي استلم إرث أمية ملطخا بالوحل مغموساً بالدم فجعله أسمى من النجم وأبهى من سنا الشمس الرجل الذي أنشأ دولة عاشت قرنين ونصف.

قراقوش المفتري عليه:

إنه رجل راح ضحية الأدب المفترى هو قراقوش الذي صار على ألسنة الناس في كل زمان ومكان المثل المضروب لكل حاكم فاسد فكلما أراد الناس أن يصفو حكماً بالجور والفساد قالو هذا حكم قراقوش.

إن قراقوش له صورتان صورة تاريخية صادقة ، وصورة روائية صورها عدو له من منافسيه فالصورة التاريخية الحقيقية طمست والصورة الخيالية البطالة بقيت وخلدت فلا يذكر قراقوش إلا ذكر الناس الحكايات والأحكام الغريبة التي نسبت إليه فمن هو قراقوش ؟

هو أحد قواد بطل الإسلام صلاح الدين الايبوبي كان من أخلص أعوانه وأقربهم إليه كان قائداً وجندياً أميناً ومهندساً حربياً وكان مثال للرجل العسكري وكان أعجوبة في أمانته لما أحس الفاطميون زوال ملكهم شرعوا يعبثون بنفائس القصر ويحملون منها ما يخف حمله ويغلو ثمنه وكان القصر مدين صغيرة فيها ما لا يعد من التحف والكنوز فوكل صلاح الدين قراقوش بحفظ القصر فنظر فإذا أمامه الجواهر والحلى النادرة والكؤوس والثريات مالا مثيل له في الدنيا .

فلا فتنه الجمال ولا أغواه المال ووفى الأمانة حقها ولم يأخذ لنفسه ولا ترك أحداً يأخذ منها .

وهو الذي أقام أعظم المنشآت الحربية التي تمت في عهد صلاح الدين فإذا ذهبتم مصر وزرتم القلعة المتربعة على المقطم فأعلموا أن هذه المدين العسكرية من آثار قراقوش وإذا رأيتم سور القاهرة فاعلموا أن الذي بنى السور و أقام فيه الجامع هو قراقوش ولما وقع الخلاف بين ورثة صلاح الدين ما كفهم ولا أصلح بينهم إلا قراقوش .

ولما مات العزيز الأيوبي أوصى بالملك لابنه المنصور وكان يبلغ التاسعة من عمره جعل الوصي عليه قراقوش فكان هو الحاكم العادل والأمير الحازم فأصلح البلاد وأرضى العباد فمن أين جاءت تلك الوصمة التي وصموا بها قراقوش ومن ذا الذي شوه هذه الصورة السوية ؟

إنها جريمة الأدب ياسادة . لقد أساء المتنبي إلى كافور فألبسه وجها غير وجهه الحقيقي و أساء ابن مماتى إلى قراقوش فألبسه وجها غير وجهه الحقيقي وابن مماتى كاتب بارع وأديب طويل اللسان كان موظفا في ديوان صلاح الدين وكان الرؤساء يخشونه ولكن قراقوش وهو الرجل العسكري الذي لايعرف الملق ولا المداراة لم يخش شره ولم يدر أن سن القلم أقوى من سنان الرمح فألف ابن مماتى رسالة صغيرة سماها "الفافوش في أحكام القراقوش" ووضع الحكايات ونسبها إليها

فصدقها الناس ومات قراقوش وعاش قراقوش الفافوش كما مات كافور التاريخ وعاش كافور المتنبي وكما نسى عنترة الواقع وعرف عنترة القصة .

وهذا يا سادة سلطان الأدب فـ اتقوا الله يا أيها الأدباء في هذا السلطان ويا أيها الناس لاتخدعوا بتزييف الأدباء.

فاتح المشرق:

أترون هذه البلاد التي تمتد من ساحل المحيط الاطلنطي حتى تصل بساحل المحيط الهادي من فارس إلى الصين إننا لم نفتح هذه البلاد لهواً فنحن أرقنا فيها أنهاراً من دمائنا وضحينا فيها جبال من أجسادنا وسخرنا لها عبقرياتنا ووقفنا عليها بطولاتنا التي لم يعرف التاريخ إلا الأقل منها وبقي سائرها سراً احتسابا للأجر عند الله.

لكل منطقة قصة رائعة ولكل معركة قواد عباقرة تسمع أخبارهم فتقول هؤلاء أعظم قواد الزمان فإذا سمعت أخبار قادة معركة الأخرى قلت هؤلاء أعظم وأقدر .

لقد تعاقب على هذه الراية الإسلامية حتى بلغ الأفقين وهذا الحديث عن قادة من هؤلاء القواد الكبار عن الرجل الذي ضم بسيفه إلى الوطن الإسلامي بلاداً يسكنها أقوى شعوب العالم القديم على الحرب وأشدها تمرساً وبراعة رجل ما رفعه نسبه فقد كان من أخس قبائل العرب وأحطها منزلة كان يستحيي أبناؤها من الإنتساب إليها هو الشاب الذي اختاره الحجاج ليتولى القيادة العامة لجيش المشرق الرجل الذي فتح من حدود إيران اليوم إلى أواخر تركستان ألم تعرفوا بعد من هو ؟ إنه قتيبة بن مسلم الباهلي .

كان مركز جيش المشرق مرو وكانت الفتن عصفت بالجيش الضخم الذي كان يقوده المهلب وانه يزيد فلماً عرضه قتيبة لم يجد إلا ثلاثمائة درع فالتجأ إلى آخر حمى يلتجئ إليه كل جيش والحصن الذي يحتصن به وهو الإيمان فقام يذكرهم بالله ويحضهم على الجهاد لإعلاء كلمة الله الجهاد الذي لايثمر إلا إحدى الحسنين الظفر أوالجنة هز نفوسهم فطرح عنها أثقال الأحقاد والشهوات فكانت هذه الكلمات مست جوانب الايمان في النفوس وزاد الجيش عددا إلى عدده فإذا هو جيش جديد قوي لو قحم به البحر لاقتحمه .

وتوجه الجيش لينشر الإيمان في أرض لم ينتشر فيها سار ليتمم الرسالة ويحقق المعجزة وماهي إلا جولات حتى عجم الأعداء عوده وعرفوا أي سهم ماض رماهم به الحجاج وجعلت تتساقط على قدميه التيجان وجاء ملك الطالقان والصغانيان من ملوك الترك فقدما إليه مفاتيح من الذهب على وسائد من الحرير رمزاً للإستسلام بلا قيد ولا شرط وكذلك يرفع الناس وجوههم إلى السماء كلما ضاقت عليهم السبل فيرون باب السماء مفتوحاً أبداً .

وكان لقتيبة جواسيس في جيش العدو فأغروا كبيرهم بأن يكون معهم على قتيبة وشروه على أن يغشه فجاءه واختلى به ومعه أحد القواد فقال الجاسوس إن العدو كثير و أنا أرى أن تنسحب بالجيش قال كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله وأما أنت فقد خنت وقرره فأقر فضرب عنقه وقال للقائد لم يسمع إلا أنا وأنت وإلا لألحقتك بالخائن .

واشتدت المعركة حتى زلزلت المدينة واضطرب جيش الأعداء فطلبوا الصلح والمعاهدة ولكنه لم يكاد يرجع عنهم حتى نقضوه فعاد إليهم وكانت الهزيمة وفتحت بيكند .

ولا أريد أن أصف الخاتمة التي ختم بها جهاد هذا المجاهد والميتة الفاجع التي ماتها وإني لاختمها بأغرب قصة في تاريخ الحروب لم يقع لأمة مثلها ولا أظن أن تقع لأمة أخرى .

لقد كان من فتح قتيبة سمرقند شيء من الغدر فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رفع إليه أهل سمرقند دعوى على الجيش الإسلامي أن بلدهم فتح غدراً فأمر عمر بتأليف محكمة خاصة من قاض واحد لرؤية الدعوى وجلس القاضي وأحضر المدعين والمدعي عليه القائد العام للجيش الإسلامي وسمع أقوالهم وصدر حكما ببطلان الفتح لأنه كان غدراً ولأنه خالف قواعد الإسلام في الحروب وشرع الجيش بالإنسحاب ولكن أهل البلد المدعين الذين ذاقوا نعمة الحكم الإسلامي طيلة السنين عاد يطلبون اختيار أن يبقوا تحت راية الإسلام بهذا الايمان والأخلاق لا بسيوفنا ولا رماحنا فتحنا العالم وبمثل هذا الإيمان نستعيد فلسطين ونكتب صفحة أمجادنا في التاريخ مرة أخرى إن شاء الله .

من ورثة الأنبياء:

هذه قصة عالم أخلص للعلم حتى جعل طلبه أكبر غايته وغاية حياته وكان في هيبته وصراحته مع الملوك أمة وحده وله مواقف مع عبدالملك والوليد تحسبها من أحاديث الخيال وكان فقيها أديبا وشاعرا بقي أربعين سنة لا يسمع الأذان إلا وهو في المسجد ولم يبدل مكانه من الصف الأول ورأى الحجاج مرة يسيء في صلاته فنبهه ولم يسمع فرماه بكف من حصى في المسجد وأنا محدثكم عن منقبتين من مناقبه الكثيرة الأولى فلتروا ما كان يلقى العلماء في سبيل عقيدتهم ويؤذون أجسادهم وأموالهم وأما الثانية فلتعلموا أنهم كانوا إذا دعوا إلى خير بدؤوا فيه بأنفسهم لم يكن العلم عندها بضاعة للتصدير فقط كان سعيد يفتي بأن الرسول نهى عن بيعتين فلما أراد عبدالملك بن مروان أن يبايع لولديه الوليد وسليمان من بعده وتبع الناس وبايعوا لم ينس سعيد فتواه ولم يتناسها وقف موقف الحق وأبى عن البيعة وبذل أمير المدين أنواع الترغيب والترهيب فأبى وهدده بالجلد علناً فذهب وفد من كبار العلماء فعرضوا عليه أن يسكت فلا يقول لا ولا نعم فقال أنا أسكت عن الحق؟ لا قالو اعتزل في بيتك أياماً حتى تمر العاصفة قال ابقى في بيتي فلا أخرج إلى الصلاة وأنا أسمع حي على الصلاة وما سمعتها من أربعين سنة إلا وأنا في المسجد؟ لا. قالوا بدل مكانك حتى إذا جاء رسول الأمير لم يجدك قال أخوفا من مخلوق؟ لا أتقدم عن مكاني شبراً ولا أتأخر شبراً دعاه الأمير فهدده بالقتل فكان لا يسكت خوفا من السيف ولا يكتم العلم . أما المنقبة الثانية للعلماء والناس ، وهي درس اجتماعي لو حفظه الآباء لما بقى في البيت بنت كاسدة ، ولما بقى في البلد شاب فاسق نحن في المدينة إن الناس قد خرجوا إلى الطريق والنساء قد أطللن من شقوق النوافذ إن الناس يرتقبون موكب رسول الخليفة المندوب الخاص لعبدالملك قادماً بمهمة لقد وصل الموكب وأسرع إلى المسجد هو مجمع كل أمر جلل فيه تكون البيعة وفيه يستقبل وفيه تلقى الدروس ويؤخذ العلم فهو المحكمة وهو الجامعة وأقبل الرسول حتى وقف على حلقة سعيد فأبلغه سلام أمير المؤمنين وأنة قادم يخطب إليه ابنته للوليد ولي عهد المسلمين وغبط الناس سعيداً على هذه النعمة التي نزلت عليه

وارتقبوا أن يهش سعيد ويبش ويطير فرحاً بهذه النعمة ولكن موازين الناس غير ميزان سعيد ميزانة ميزان الشرع الناس يفتشون عن المال والجاه ولكن سعيداً يفتش لابنته عن السعادة الزوجية عن الخلق والدين فكر سعيد في هذا والرسول واقف ينتظر جوابه ولا يشك في أنه جواب الموافقة ولا شك الناس وإذا سعيد يقول : لا

إنه رفض أن يعطي ابنته لأمير المؤمنين ومرت أيام وكان له تلميذ اسمه ابوداعه متين الدين رضى الخلق انقطع عن الدرس ثم جاء فسأله فقال : مرضت زوجتي فمرضتها وعنيتبها ثم توفيت فدفنتها

فقال : هل تزوجت غيرها

قال : ومن يزوجني ولا أملك إلا أربعة دراهم ؟ فمن يزوجني بأربعة دراهم ؟

قال سعيد : أنا سعيد الذي رفض ابن أمير المؤمنين الذي يملك ما بين البحر الأطلنطي وجبال الصين يزوج أبا وداعه الذي لا يملك إلا أربعة دراهم وشدة الرجل وكذب أذنه وانعقد لسانه وحسب نفسه في منام ولكن سعيداً دعا بالشهود وعقد العقد وذهب الرجل إلى داره وهو لا يزال في حمى الدهشة وقدم عشاءه وإذا بالباب يقرع

قال: من

قال: سعيد

قال أبو وداعه : ومر على بالي كل سعيد في الدنيا الا سعيد بن المسيب لأنه لم يطرق باب أحد من أربعين سنة ففتح له فقال : كرهت أن يسألني الله عن وحدتك ولك زوجة ، فجئت بها ، ودفع العروس

هكذا بلا حفلات ولا جهاز قال : رحمك الله ، ألا انتظرت حتى أحصل مالاً وأعد للعروس عده قال : أما قلت : أن معك أربعة دراهم فعلام الحفلات ؟

قال أبو وداعه :ورأيتها أجمل امرأة وأكملها ولما أصبحت غدوت لأذهب

قالت : إلى أين ؟

قلت : إلى مجلس سعيد

فقالت : أقعد أعلمك علم سعيد وإذا هي عالمة محدثة ولقد كنا بعد إذا أعيت العلماء مسألة رجعنا إليها إني لا أستطيع أن أحدثكم بمناقبة كلها فلنقف عند هاتين المنقبتين ولنأخذ منهما دروساً درساً للعلماء ودرساً للآباء ورحم الله من يسمع فيعي ويعلم فيعمل .

الإمام الأعظم

نحن المسلمين قانوننا هو القرآن ، و شرحه الرسمي الحديث ، و مذكرته الإيضاحية أسباب النزول و التفسير ، فمن الناس من لم يشتغل بالعلم ، فهو لا يستطيع أن يفهم الحكم من القرآن و الحديث ، و هذا شئ طبيعي ، كما أن التقليد طبيعي ، إذ من الناس من ينقطع إلى علم من العلوم فيجتهد فيه ، و يقلد فيه غيره.

و أول من أنقطع للفتوى و الاستنباط ، و جمعت أقواله و تعدد أصحابه حتى صارت له مدرسة أو مذهب هو أبو حنيفة .

اجتمع حوله طائفة من التلاميذ صاروا بعد أعلام الدنيا ، و كان كل واحد منهم مختصاً بناحية فإذا وردت مسألة بحثوا فيها و تناقشوا . و قد يبحثون المسألة شهراً حتى يتجه لهم الحكم فيها . فكان مجلسه برلماناً و لكن أعضاءه من نوابغ الدهر .

و كان لأبي حنيفة فقهية عجيبة ، و طريق دقيق في استنباط الأحكام ، و بيان عللها .

و كان أبو حنيفة إذا أشكلت عليه مسألة قال لأصحابه : ما هذا إلا لذنب أحدثته . فيستغفر الله و يصلي حتى تتفتح له . فكان يصدر في تفكيره عن خشية الله .

عاش حياته كلها من كسبه يوزع المال و العلم ، و يعلم الناس الفقه و التقى و الكرم ، أرادوه على الولاية مرتين : مرة أيام بني أمية و مرة أيام بني العباس ، و ضرب في المرتين فرفض ، فكانت الأخيرة سبب وفاته .

و المذهب الحنفي اليوم ، أوسع المذاهب انتشاراً ، و أوسعها فروعاً و أقوالاً ، و هو أنفع المذاهب في استنباط القوانين الجديدة ، و الاجتهادات القضائية .

رحم الله الأئمة و من كان قبلهم و بعدهم ممن لم يدون مذهبه ، و لم يكن أقل منهم : الليث و الأوزاعي و سفيان و حماد ، و رحم أبا حنيفة ، من كان أقدمهم ؛ و كان أقدرهم ، و من دعي بحق (الإمام الأعظم) .

الفصل الرابع

أكبر ملوك الأرض

أنتقل بكم في هذا الحديث إلى أزهر عهد من عهود الحضارة الإسلامية إلى أعلى ذروة في سلسلة أمجاد العرب ، إلى الدور الذهبي ، إلى الأيام التي كانت كلها أعراساً .

إلى المدينة التي شهدت من النرف و البذخ ، و العظمة و الجلال ، ما لم تشهد مثله مدينة .

مدينة كانت دنيا كاملة ، فيها الخير و الشر . العلم فيها . و الفسوق فيها .

تلك هي بغداد .. بغداد هارون الرشيد ، بغداد ألف ليلة و ليلة ، بغداد التي صارت حلماً من الأحلام ، و وحياً لكل أديب و شاعر ، و واضع قصة أو فلم ، من تلك الأيام إلى الآن ، و من أقصى المشرق إلى هوليود . لقد كانت بغداد سرة الدنيا و كانت قصبة الأرض ، و كانت أمل كل طامح في المجد ، راغب في العلم ، آمل بالغنى ، هائم بالجمال .

هارون الرشيد

الرشيد الذي كان يحكم وحده حكماً استبدادياً مطلقاً ، عشرين حكومة من حكومات اليوم .

الذي قال للسحابة أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك ، الذي كان دخل خزانته الخاصة 411 مليون دينار من الذهب ، الذي كان صورة من عصره ، صورة من بغداد ، التي فيها كل شي .

هذا هو الرشيد ، الذي جعله الحظ أشهر ملوك الإسلام .

كان محباً لمجالسة العلماء و الصالحين ، و سماعه المواعظ ، و بكاؤه لها ، كان يبكي بإخلاص و كان عند سماعه مستغرقاً في الجو الديني ، كما أنه عند سماعه الغناء يستغرق في الجو اللهوي ، و لم يكن منافقاً ، و لكنه نوع كما يسميه علماء النفس إزدواج الشخصية ، موجود عند كثير من الناس ، و لكن يختلف مقداره و تختلف درجة إحساسهم به .

و كان العلماء معه ثلاثة أصناف : صنف يسايره ليرضيه و يأخذ من دنياه ، و صنف يغلظ له القول و يشدد عليه الموعظة ، و يقوم بحق الله بلا مجاملة و لا رعاية لمقامه الدنيوي .

و بلغ من حبه العلم أن رحل هو وولداه الأمين و المأمون لطلب العلم و قراءة الموطأ على مالك من بغداد إلى المدينة ، كما يرحل الطلاب الموفودون اليوم ، و هذا لم يسمع عن ملك في الشرق و الغرب إلا عن صلاح الدين الأيوبي لما رحل إلى الإسكندرية لسماع الحديث .

و جعل لطلاب العلم رواتب يبلغ أعلاها أربعة آلاف دينار في السنة . و كان للعلماء أسمى المنازل في مجلسه و كان يدعوهم إلى مائدته الخاصة .

يخاطب الإمام أبو يوسف الرشيد فيقول :

يا أمير المؤمنين ، لقد قلدك الله أمراً عظيماً ، ثوابه أعظم الثواب ، و عقابه أشد العقاب ، قلدك أمر هذه الأمة ... إلى أن قال : إنك راع وإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه ، فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ، و يضيعك بما أضعت أمانتك ، و إن إصلاح الناس بإقامة الحدود عليهم و رفع الظلم عنهم.

يا سادة : هل يستطيع أكبر عالم أن يقول مثله اليوم لأصغر أمير .

و هل يقبله الأمراء ، إن أستطاعه العلماء ؟ .

رحمة الله على أولئك العلماء ، و جزاهم خيراً ، و أرانا أمثالهم .

جامع الدين والدنيا

علم شامخ من أعلام الإسلام وإمام من أئمة الفقه الكبار هو الإمام العالم الليث بن سعد ولد في قرية مصرية سنة 94 هـ .

لم يشغله غنى أهله عن طلب العلم والرحلة به لا كما يرحل الطلاب الآن إلى أوروبا وأمريكا بل كما يرحل السلف يرحلون ليتلقوا العلم وويتلقوا قبله الدين والتقى والسلوك الإسلامي وقد أخذ عن علماء مصر والتقى بأئمة الحجاز.

وبلغ منزلة في الحديث والفقه شهد له فيها أكابر العلماء.

قال أحمد بن حنبل: مافي المصريين أثبت من الليث وكان يقول: الليث بن سعد ما أصح حديثه وكان يعيش معيشة الملوك وكان إذا رحل، رحل بثلاث سفائن: سفينة له ولأضيافه وتلاميذه، وسفينة لعياله وسفينة لمطبخه وخدمه وكان كل من جاءه من التلاميذ يأكل وينام وينفق على حسابه لا يكلفه من المال شيئاً وإذا أراد السفر أعطاه نفقته وزاده!

وكان يعطي العلماء رواتب دائمة .

توفى الليث يوم الجمعة 175/8/14 هـ وعمره 81 سنة.

قال خالد بن عبدالسلام الصدفي : شهدت جنازة الليث مع أبي فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها.

قلت : يا أبت، كأن كل واحد من هؤلاء هو صاحب الجنازة.

فقال : يابني، كان عالمًا، كريمًا، كبير العقل، كثير الأفضال.

يابني، لن ترى مثله أبدًا.

ناصرُ السنة

هذه قصة رائعة من قصص الثبات على المبدأ، وحمل الأذى في سبيله، والتضحية بالنفس والمال من أجله.

إن تاريخنا المكتوب هو تاريخ الملوك، أما تاريخ الشعب بعادته وأوضاعه .. أما تاريخ الفكر باتجاهاته ومقاوماته فلم يكتب ! ولو كان تاريخ الفكر مكتوبًا لقرأنا فيه أنه كان للفكر في العصر العباسي الذهبي وجهتان مختلفتان:

1. **وجهة التمسك بالأثر والوقوف عند ظواهر الحديث وترك القياس**
2. **ووجهة إطلاق العقل في البحث والقياس والنظر.**

وكان النزاع بين المعسكرين نزاعًا فكريًا حتى جاء المأمون فقرب إليه الوجهة الثانية وبذلك بدأت المأساة التي عرفت في تاريخنا بإسم المحنة.

وأنا كلما قرأت خبر المحنة (الامتحان) أقف عند أمور ثلاثة وأعجب منها أشد العجب.

أولها : أن المعتزلة هم أصحاب المذهب العقلي في الإسلام، فكيف سوغ لهم ضد العقل أن يكرهوا الناس بالقوة على قبول آرائهم على مافيها؟!

ثانيها : أن المأمون هو أعظم ملوك بني العباس في عقله وخلقه وحلمه وفي سعة مداركه وعمق تفكيره كيف رضى لنفسه أن يوصم بالعدوان على حرية الفكر؟

ثالثها: المسألة التي لا تستحق هذه العناية وليست من أركان الدين وهي : هل القرآن مخلوق أم لا؟

بدأت المحنة بورود كتاب المأمون وكان بخراسان وطلب أن يجمع العلماء الرسميين في بغداد ويسألهم عن القرآن فمن لم يقل أنه مخلوق عزله، وكانوا جميعًا لا يقولون بذلك ولكن الضعف البشري دفعهم إلى التظاهر بالموافقة وشدد على من لا

يوافق وأمر بوضعهم في الحبس وإثقالهم بقيود الحديد فوافق أغلبهم وبقي محمد ابن نوح وأحمد بن حنبل فأمر بحملهم إليه إلى خراسان وتوفى المأمون وابن نوح قبل أن يصلوا فبقى أحمد وحده.

ولبث أحمد في السجن وأصبح ضعيفًا ولكنه كان دائم العبادة، يصلي بأهل السجن وهو مقيد بقيود الحديد وكان يعذب دائمًا ولكنه كان صابرًا مؤديًا لأمانة العلم وكلما شدد عليه المعتصم لينطق يقول لهم هاتوا آية أو حديثًا.

عندما أشرف إلى الموت خاف المعتصم أن يثور الناس إن مات فرفع عنه الضرب وسلمه لأهله، بعدما لبث 28 شهرًا.

وليت المعتزلة كانوا قد تركوا الغلو في تحكيم العقل فيما لا يقدر الحكم عليه، وأوضحوا ماكان منهم من خطأ.

ختامًا ثواب أحمد في الاخرة أكبر، ومنزلته أعلى. رحمة الله عليه.

الفصل الخامس

مفتي السلطان سليم

نحن الآن في بلاط الملك العظيم، فاتح الشام ومصر وناقل الخلافة إلى الشرك الملك الذي لقب (ياوز) وكان ياوزًا حقًا صاعقة منقضة لا يقف في وجهها شيء، السلطان ياوز سليم تاسع ملوك آل عثمان هو الذي أمن أهل حلب على دمائهم وأموالهم ثم فرض عليهم ضريبة سماها (مال الأمان)

وكان القتل أهون شيء عليه وكان الرجل إذا سمى للوزارة، كتب وصيته، وأعد كفنه وودع أهله فلا يدري كلما ذهب ليقابل السلطان أيعود ماشيًا على رجليه، أم محمولاً على قفاه.

فلم يدع الوزراء وأهل الديوان إلا دخول الشيخ المفتى عليهم وماكان من عادة المفتي أن يدخل الديوان وليس له حاجة وطلب منهم أن يدخل على السلطان فاستأذنوا له فأذن له وحده فدخل وسلم عليه وجلس والسلطان ينظر إليه بغضب وسكت يرقب مايأتي به الشيخ الذي دخل عليه بلا دعوة!

فقال الشيخ: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان وقد أمرت بقتل 150 من العمال لا يجوز قتلهم شرعًا، فعليك بالعفو عنهم.

فطار الغضب بعقل السلطان وقال له: إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك.

ولكن الشيخ اعترض وقال : بل أتعرض لأمر آخرتك وأنه من وظيفتي.

وذكره بالآخرة وأنها لا تعصمه منها ملكه ولا ينجيها سلطانه، ولم يعد الشيخ هو الذي يتكلم بل أعظم موجود عرفته هذه الدنيا: الإسلام.

وكذلك يذل أكبر جبار أمام العالم بالحق، وعفا السلطان عنهم جميعاً وبعد ذلك جالس الشيخ وأكرمه.

هذا المفتي هو المولى علاء الدين علي بن أحمد الجمالي الذي تولى التدريس والفتوى 26 سنة يمضي وقته كله في التلاوة والعبادة والدرس والفتوى ويصلي الصلوات الخمس مع الجماعة وكان كريم النفس، طيب الأخلاق، صداعًا للحق، وألقى الله هيبته في قلب السلطان سليم.

وظيفة المفتي هي المحافظة على آخرة السلطان كما الطبيب من وظيفته المحافظة على صحته.

ولو أن عصرًا خلا من أمثال هؤلاء ولكنهم موجودون أبدًا معجزة حية باقية لخاتم الأنبياء محمد وتصديقًا لقوله : " لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرها من خالفها حتى تقوم الساعة".

الاحتفال بالمولد

إن أول من ابتدع الإحتفاء به هو الملك المظفر فمن هو؟

كان الملك المظفر قائدًا من قواد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وعاملاً من عماله أم لقب الملك فكان في اصطلاح تلك الأيام يطلق على كل وال أو حاكم ولو كان حاكم قرية.
وكان أبوه من شجعان التركمان وكان يلقب بـ (كجك) ومعناها بالتركية : الصغير، لأنه صغير الجسم ولكنه كان قويًا، حضر الوقائع العظيمة وفتح الفتوح الجليلة وكان ابنه الملك المظفر يدعلى (كوكبوري) ومعناه : الذئب الأزرق وشهد مع صلاح الدين الأيوبي المشاهد كلها وكان من أثبتهم في المعارك قدمًا، وأجرئهم قلبًا، ماعرف الهزيمة قط.

أما سيرة الملك المظفر في السلم فلم تكن دون سيرته في الحرب، هنالك النجدة والثبات والظفر، وهنا العدل والإحسان والكرم وليس ذلك عجبًا في ذلك العصر فإن الناس على دين ملوكهم ومتى كان السلطان مثل صلاح الدين كان الأمراء مثل الملك المظفر.

لم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة والبذل لا للشعراء ولكن للفقهاء والفقراء وكان يجل العلماء ويدنى مجالسهم

ورأسى المرضى فبنى لهم 4 مستشفيات ووفر فيها جميع متطلبات المستشفى وكان يزور المرضى واحدًا واحدًا يسأل عن طعامهم ومايشكو منه ويبرهم بالمال والفاكهة والطرف.

وأنشأ دارًا للضيافة، ينزل فيها كل مسافر ثلاثة أيام وفتح مدرسة عظيمة جعلها قسمين:

1. **قسمًا للحنفية.**
2. **قسمًا للشافعية.**

وفتح مدرستين للصوفية!

وجعل للحج بعثة رسمية ويرسل مع الحجاج 6000 دينار لفقراء الحرمين وكان له بمكة المآثر الجليلة، منها أنه كان أول من أجرى الماء إلى عرفات.

قد قلت لكم إن الملك المظفر كان أول من أظفر الاحتفاء بالمولد ولم يكن احتفاء ديني وإنما كان (معرضًا) كهذه المعارض التي تقيمها دول أوربا في هذه الأزمان، فيه اللهو وفيه الغناء وفيه كل شيء.

هذه سيرة رجل كان من أنفع الناس للناس واسأل الله أن يغفر له إن كان من أنصار البدع في الدين، ومن أعوان المتصوفين المبتدعين توفي ليلة الأربعاء 630/9/18 هـ

شارع القاموس (الزبيدي):

هو أشهر علماء زمانه ،وكان أديباً شاعراً ،وقوراً مهيباً ومع هيبته كان خفيف الروح عذب النكتة ،متحدثاً قليل النظير .

وكان مع هذا الجاه والعلم يشتغل بالوعظ وبالرقى والتمائم (الحجب)، ويوهم الناس بأنه المهدي !.

وكان يعرف من اللغات التركية ، والكرجية بالإضافة إلى الفارسية ،وإتقانه أساليب معاشرة الملوك والكبراء،وأساليب التأثير على العامة ،وكان هذا من أسباب مانال من شهرة ، وماكان له من مكانه نال بعضها بالعلم الحق ،وبعضها بهذه الأساليب !

ووقع له حادث غير مجرى حياته وقلبها رأسا على عقب وحوله من الحالة الإجتماعية التي كان مضرب المثل فيها إلى عزلة وانطواء على نفسه وهو وفاة زوجته التي أحبها حب عظيم . مضى ولكنه خلف أكثر من خمسين مصنفا ، حسبه أن يكون منها شرح إحياء علوم الدين وتاج العروس في شرح القاموس .

أبو دلامة :

شاعر خفيف الروح أنشهر بكثرة نوادره في الشعر،وكان صاحب بديهة يداخل الشعراء ويزحمهم في جميع فنونهم وينفرد في وصف الشراب والبياض.

له مواقف مع الخلفاء يطول سردها حيث كان يحتال عليهم بشعره ويأخذ ما يريد من أموال .

عائشة التيمورية :

نشأت في أسرة تركية غنية فتعلمت القراءة والكتابة في القصر على طريقة بنات الأكابر ولاحظت شغفها في اللغة العربية فتعلمت النحو وطالعت كتب الأدب وحفظت عشرات الدواوين .

عاشت حياة العز في بيت والدها ولكن دوام الحال من المحال كان لها بنت اسمها توحيده جمع الله لها جمال الخلق وسمو الخلق ماراها أحد إلا أحبها فلما بلغت ثمانية عشرة سنة تزوجت فما مر على عرسها شهر حتى أصابها مرض مفاجئ فماتت.

وروعت عائشة الصدمة،ولم تستطع التصبر ونسيت كل شي إلا ابنتها ، وتركت كل شي إلا رثاء ابنتها ، واستمرت على هذا الحال سبع سنين كاملة حتى ذهب بصرها ثم ألهمها الله الصبر ولكنها لم تنس هذه النكبة أبداً.

البَرَامِكَة

قصه رجل سَمَوْا إلى السماء العز ،وبلغو من السعادة مالم يكن يبلغ أحد مثله وقاسوا من الشقاء ،فكانوا عجباً في رقيهم رجال كانت لهم في تاريخنا أضخم الأسماء ، ملكوا القلوب بإحسانهم وأعتقوها ،وثبتت لهم على الولاء وبقيت على حبها لهم بعد نكبتهم كما كانت أيام سعادتهم .

وضعت في أعناقهم أمانة السهر على الأمة كلها، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فتركوها وأقبلو على اللذات فسمعو ولهوا ولعبوا ، وإذا ملوا وتعبوا ،ناموا عن الواجب عليهم ،فجعل الله لهم العقوبة في الدنيا، وجعل منهم تحقيقاً لما أخبر به الرسول_صلى الله عليه وسلم_ حين قال:((من أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه))

وما أسرد قصتهم إلا لتكون عبرة لمن يغتر بهذه الدنيا ،ليرى أنه مهما نال فلن يبلغ ما بلغه البرامكة،ثم لما نزل بهم القدر هلك عنهم مالهم ،وما أغنى عنهم سلطانهم.

كان في (بلخ) معبد ضخم يسمونه (التوبهار) ولم يكن معبداً للنار يعبدونها من دون الله ،وكان سادنه (برمك) رجل الدين في البلد وسبقه إلى هذا الشرف أبوه من قبله ، وجده من قبل أبيه ،كانوا رأس المجوسية،فأطفأ الإسلام نار الشرك، كما عوضهم من نار الظلم ،فأبصروا الحق فاتبعوه ، ونشأ(خالد بن برمك) هذا، مسلم القلب عربي اللسان .ماحتل الإسلام قلب أمه إلا احتلت العربية ألسنة أهلها ،وكان في هذه الحضارة عناصر عقلية واجتماعية ولكن العقيدة بقيت إسلامية خالصة واللسان بقى عربياً خالصاً.

وقامت دولة بني العباس على أكتاف الأعجام ،وفتح المجال لأهل الكافية والمزايا منهم،فكان خالد مع من ظهر فضله. وتدرج (الحركة السرية) التي كانت تعمل لهدم الدولة الأموية ،حتى صار من وجهاء أصحاب قحطبة بن شبيب،وولاه الإشراف على مالية الجيش وقسمة الغنائم، واتخذه مستشاراً له ،ولبث دائباً على العمل حتى نجحت هذه الحركة،وتم القضاء على الأمويين،

وكانت بيعة السفاح،فدخل خالد للبيعة، فلما سمع كلامه ورأى فصاحته لم يشك أنه من صميم العرب،وأبقاه في عمله، ثم انتقل إلى ديوان الخراج و ديوان الجند ،ثم رقاه إلى مايشبه منصب الوزارة. وبقى على ذلك حتى مات السفاح وولي المنصور،فأقره في الوزارة سنة وشهوراً، وتقرب أبو أيوب المورياني من المنصور سعى بخالد وعمل على إبعاده ،فولاه المنصور بلاد فارس سبع سنين ،ثم عزل ونكب ،ثم أعيد أميراً على الموصل،ولبث فيها حتى ولي المهدى فأعاده إلى فارس، ووجهه مع ولده هارون في إحدى غزواته.

انتقل هذا الرجل من ابن سادن في معبد نار في الأم المغلوبة إلى أمير ووزير في الدولة الغالبة،وما أعانه على ذلك نسب ولا حسب ولا مال ولا نشب،بل أعانه عليه وأوصله إليه العلم والفضل والادب .

وهذى صوره واحدة من صحة عقله وصواب مشورته ،وسبب تبرك قحطبة القائد برأيه:لما بعث أبو مسلم قحطبة بين شبيب الطائي لمحاربة يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى والى الأمويين،كان خالد في جملة من كان معه،فنزلوا في قرية،فبينما هم على سطح يتغدون إذا نظروا إلى الصحراء،وقد أقبلت منها أقاطيع الوحش وغيرها حتى كادت تخالط العسكر،فنظروا متعجبين ولم يفكر أحد في شأنها.فقال خالد لقحطبة :أيها الأمير ناد في الناس أن يركبوا ويستعدوا للقتال قبل أن يهجم عليهم العدو.

فقام قحطبة مذعوراً فنظر فلم يرا أحداً ، فقال: يا خالد ما هذا الرأى ؟ قال :العدو مسرع إليك،أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت ؟ إن وراءها لجمعاً كثيفاً. كادو يركبون حتى طلع لهم عليهم العد ،لولا خالد لهلكوا.

ونشأ ولده (يحيى) في بيت المارة، يعيش مع أولاد الخلفاء كأنه منهم ،أباه لم يتركه يستسلم إلى اللهو والعب ،بل أخذه بالقراءة والأدب ،دربه على العمل ،وصرفه في المناصب حتى(كان على أحسن حال) ،وأعجب به المهدي وقربه إليه، حتى سمح أن يرضع ولده هارون (الرشيد) من زوجه يحيى مع ولده الفضل، وأن يرضع الفضل مع الخيزاران، جعله مؤدباً له، بل فوض أمر تربيته والقيام عليها حتى صار له أبا بعد أبيه،وصار يدعوه (يا أبي)،تبدلت الحال،فبعد أن كان سراة قريش في الجاهلة،كان أوائل الخلفاء بعد الإسلام يبعثون بأولادهم ليتربوا في شمس الصحراء وطهرها،صار الخلفاء العباسيون يسلمون أولادهم للأعاجم ليربوهم وراء جدران القصور، فكان ذلك من أسباب زوال دولة العرب.وأخلص يحيى لهارون،ورمى نفسه بالموت من أجله، ووقف موقفاً لولاه ماوصلت الخلافة إلى هارون.

ولا بد لي من أن أذكر هذا الموقف بكلمه من التاريخ: كانت الخلافة بالأصل رياسة يختار المسلمون لها من شاؤو، من الصالحين ،ثم لا يكون الخليفة ملكاً مستبداً،ولا حاكماً مطلقاً، ولكن أميراً مقيداً بالكتاب والسنة ، ليس له أن يحل حراماً،ولا يحرم حلالاً.

فلما جاء معاوية من الخلافة الإسلامية إلى ملكية قيصرية ،وكانت بدعة امتدت جذورها في تاريخنا،فنظرت وجدت شوكها وأذاها، وما رأيت خلافاً ولا حرباً إلا بسببها، ولا كان هاذا اللعب بالدماء والأموال إلا من بعدها.

وكان كل خليفة يمهد لولده كما مهد معاوية ليزيد ،لم يكفيهم أن اتخذوا عباد الله خولاً،ومال الله دولاً،وخالفوا في أحكام الإسلام وسنة أبي بكر وعمر، حتى تصرفو في الناس وهم أموات ،فأوصوا بهم إلى من أحبوا،واختاروا كما المرء بنغمة شائه ودرهمه ودیناره..هذه البدعة المهدى بن المنصور فقسم البلاد في حياته بين ولديه : لموسى المشرق كله،ولهارون المغرب كله، الشام ومصر وأفريقية، وجعل يحيى معه،إليه ديوانه والقيام بعمله،الوكاله عنه إذا غاب ،بمثابة (الأمين العام) في هذه الأيام،ثم كتب العهد لهما من بعد، لموسى أولاً ثم لهارون من بعده،بدا فضل هارون على موسى فنجح في الإدارة،

وظفر في الحرب،وكان (يحيى) صاحبه ومشيره،فأحب المهدي يقدمه على موسى ،فبعث إليه كان جرجان أهل بيته لينزل عن ولاية العهد لأخيه طوعاً لئلا ينزله قسراً وإجباراً، فلم يجب،فبعث إليه رسولاً يدعوه وضرب الرسول وأعلن العصيان،غضب المهدي، وأخذته عزه الملك،فسار بنفسه ليريه قدره ويأخذه بالطاعة أخذاً،فلم يخرج من بغداد حتى كان الأجل أسبق إليه من الأمل ،والمن أعجل من الأمنية،فمات فجأه،وبويع موسى بالخلافة وتسمى بـ (الهادي)

اقترح القود على هارون وكان مع أبيه في (ماسبذان) أن يحملو المهدى إلى بغداد ليدفن فيها. فقال هارون :ادعوا إلى أبي (يحيى البرمكي) فصار إليه فقال له:

يا أبت ما رأيك فيما اقترحوه؟

فقال:ما أرى ذلك.

قال:ولم؟

قال:لأن من عادة الجند اذا مات خليفة يطالبوا برواتب سنتين أو ثلاث سلفاً،أن يتعلقوا بالنعش وأن يتحكموا ولايدعوه يسير حتى ما يعطوا مايطلبون..وتأمر لمن معك من الجند بجوائز وتنادي بالقفول، اذا قبضوا الدراهم لم يكن لهم مقصد إلا أهلهم وأوطانهم،لا يعرجون بشئ دون بغداد، وصاح بالجند لما قبضوا الدراهم:بغداد..بغداد...فعاد بهم.

وبدأ(يحيى)خطواته الأولى احتلال المكان الأعلى في الدولة.

ولما وصل الجند إلى بغداد وتفرقوا أدركوا الخدعة،وعرفو أن الخليفة قد مات،فتجمعو يطالبون بالأرزاق،وسارو إلى قصر الربيع ودخلو....

واهتمت (أم الخليفة)بالأمر،وخافت فبعثت إلى الربيع وإلى يحيى تشاورهم،الربيع لبى وحضر،ويحيى أدرك بوفرة عقله نظر أن الخليفة الجديد يغار على أهله،ويكره من أمه خصوصاً التدخل في أمور الدولة،لم يحضر فغضب موسى على الربيع ورضى عن يحيى،وأقر موسى أخاه هارون فيما ولاه أبوه ،وأمر أن يبقى معه وأن يتولى ماكان يتولاه أيام أبيه.

ولكن تبدلت الحال،وتغير قلب(الهادي)على هارون،وعملت عوامل:أظهرها ثلاثة:

١ ـ أمه الخيزران :كانت قوية الطبع،والمهدي من حبه لها يغضى عنها حتى كادت تغلب عليه،فلما مات استطاعت أن تظهر أيام البيعة لموسى،غرها ذلك وأغراها على الإستجابة لمطالب هواها،فأقبلت تخب في أمور الدولة وتضع،وصار بأبها أحفل بالطالبين والمراجعين من باب الخليفة،وغضب موسى،وكانت في رجولة،وغيره،وكان يعلم أن المرأة إنما خلقت لبيتها فما

دخلت في أمور الدولة إلا أفسدتها،ولو كانت السياسة تصلح لأنثى لصلحت لسيدة النساء عائشة أم المؤمنون .وحاول موسى منعها ويقول لها :ما للنساء والكلام في أمر الرجال؟

فلما لم تستمع؟ ولما كثر ترداد الأمراء عليها،جمعهم وقال لهم:

أيما خير،أنا أم أنتم؟

قالوا:بل أنت يا أمير المؤمنين.

قال:فأيما خير،أمي أم أمهاتكم؟

قالوا:بل أمك يأمير المؤمنين؟

قال:فأيكم يحب أن يتحدث بخبر أمه فيقولوا:يقول فعلت أم فلان ،ووضعت أم فلان ؟

قالوا:ما أحد يحب ذلك.

قال:فما بال يجيئون أمي فيتحدثون بحديثها؟

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة،فشق ذلك عليها،وأخذت تكيد له وتميل مع هارون ،فأغرته به من حيث لاتشعر.

٢ ـ وحاشية السوء:ممن كان يخشى سطوة هارون،عملوا على صرف قلب الهادي عنه والإيقاع بينه حتى هم بخلعه

٣ ـ وتفوق هارون :لمعدن نجمه وارتفاع منزلته، فقد مس مواطن الاثاره من الهادي،فعزم على تحويل الولايه إلى ابنه جعفر،وأعلن ذلك فوافقه عليه كبار القواد،منهم يزيد ،وعبدالله ،وعلي،فخلعوا هارون وبايعوا جعفر.

وتنكر الهادي لهارون وأعرض عنه،ثم زاد فأمر ألا يسير أمامه بحربة ،وألا يركب في موكب،فغدا كأنه منبوذ.

وكان في ذلك يرهبه،ويتخذ الوسائل لينزل عن ولايه العهد لجعفر،مل هارون وضاق صبره،فأوشك أن يستجيب،

قال :ما أعيش به مع ابنك عمى؟(يريد زبيده وكان يحبها حباً شديداً)

قال يحيى :وأين من الخلافة؟ولعله ألا يترك لك شيئاً..

وسعى إلى الهادي بيحيى ،وقيل له: إنه ليس عليك من هارون خلاف،وإنما يفسده يحيى.

فأغضب الهادي ،وبعث إلى يحيى من يجئ به ليلاً؛ويئس من نفسه،وودع أهله،ولم يشك أنه يقتله.

قال:يايحى،مالي ولك؟

قال:أنا عبدك يأمير المؤمنين،فما يكون من العبد إلى مولاه؟

قال:فلم تدخل بيني وبين أخي ؟

قال:من أنا حتى أتدخل بينكما؟إنما صيرني المهدي،وأمرني بالقيام بأمره،ثم أمرني فانتهيت إلى أمرك.

قال:فما صنع هارون؟

قلت :ماصنع شيئاً.

فمسك غضبه ورده إلى داره،فذهب إلى هارون قد طاب نفساً بالخلع،وبعثت الخيزران جارية لها أرضعت هارون،إلى يحيى فشقت جبينها بين يديه وبكت قالت:

تقول السيدة :لاتقتله ودعه يجيب أخاه ،فبقاؤه أحب إلي من خلافته ومن الدنيا.

فصاح بها يحيى:ما أنت وهذا؟ان يمكن ماتقولين فإنى أهلي سنقتل قبله فإن اتهمت عليه فلست بمتهم على نفسي ولا أولادي.

جلس الهادي للناس،وقال :لايدخل على يحيى إلا آخر الناس.

حتى إذا لم يبقى أحد،أدخل عليه يحيى ،وكان جلة الناس وكبار القود،فما زال الهادي يدينه ويقربه وقال له:

إني كنت أظلمك فاجعلني في حل .

فتعجب الناس من إكرامه ....فقبل يده يحيى وشكر له ،فقال الهادي:

من الذي يقول فيك يايحيى:

لو يمس البخيل راحة يحيى لسخت نفسه ببذل النوال؟

قال:تلك راحتك يأمير المؤمنين.

وكلمه في خلع الرشيد،فلم يرا منه قبولاً،فلم يجد إلا الإصرار ،فأمر به بالسجن .

ولبث في السجن،فبعث برقعة إلى الخليفة أن يسمع منه ،فدعا به فسأله ماذا يريد، فقال يحيى :

يأمير ،أخلني .فأخلاه.فقال:

يأمير ،اسأل الله ألا تبلغه،يريد موت الهادي ،أتظنهم يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به ؟

قال ما أظن ذلك .

قال:ياأمير،أفتأمن أن يسمعو بعض أهلك؟فتخرج عن ولد المهدي ،أو أن يطمع فيها ؟لو أن هذا لم يعقد لأخيك،وينبغي أن تعقد له؟فكيف بأن تحله وقد عقده المهدي له؟

أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير على حاله فإذا بلغ جعفر بالرشد ،فكان أول من يبايعه.

قال:نبهتني .وأمر بإطلاقه .

ولم يلبث موسى إلا القليل حتى مات،وقعد هارون الرشيد على سريرالخلافه ،أقعد عليه بعد الله الذي لايكون شئ إلا بأمره ،وهو يحيى ،بثباته على الوفاء،وهذا الأسلوب العجيب في الصراحة والمنطق الذي كلم به موسى،كما كان لعقل موسى وقبوله بالحق،ولقد شهد يحيى بنفسه فقال:

ماكلمت أحداً من الخلفاء أعقل من موسى .

كان يحيى أول من علم بموت الهادي،فجاء إلى الرشيد فقال:

قم يا أمير،:قال:تروعني بخلافتي وأنت تعلم حالي؟،فقال:لقد مات موسى .فقعد في فراشه،جاءه رسول آخر فقال:ولد لك غلام.

فسماه عبدالله ،كان هو عبدالله المأمون،وكانت ليلة من ليالي الدهر :مات فيها خليفة ،وولى خليفة وولد خليفة!

ماكان أسرع مانال يحيى مازرع.ولاه الرشيد وزارته،ولاه أكبر من الوزاره :نيابه الخلافة،قال له:

أنت أجلستني في هذا المجلس قلدتك أمر الرعية،وأخرجته من عنقي،فاحكم بما ترى الصواب .

ودفع إليه خاتمه ،وقام إبراهيم ينشده قصيدته يقول فيها:

ألم ترى أن الشمس كانت سقيمة فلما ولى هارون أشرق نورها

بيمين أمين الله هارون ذي الندى فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران الناظرة في الأمور،وكان يحيى يعرضها عليها ويصدر عن رأيها إلى أن ماتت.

وابتدأ من ذيك الساعة دولة البرامكة،لم يكن فيها من الفضائل إلا نبل النفس ،وفصاحة اللسان ،إيقامه حدود الله وتباع شرع الله وحفظ أموال المسلمين فلا تؤخذ إلامن حلها،والتخلق بأخلاق الصالحين ،والبعد عن اللهو والعب والحرام،فما كان منه في هذه الدولة إلا القليل.

دامت هذه الدولة سبع عشره سنة....كان البراكمة هم المتصرفين فيها،في حكم هارون ،لم يكن حكمهم كحكم من جاء بعدهم من الترك أولا،البويهيين ثانيا،والسلاجقة أخيراً،حين غدا الخليفة اسماً بلا رسوم،الخليفة يحكم حين يريد الحكم ،ذلك لأن

الدولة العباسية لم تزل في شبابها،ولا يزال خلفائها سلطانهم،ولم يكن المعتصم قد أجرم تلك الجريمة المنكرة،فصارت الدولة في انحدار ،وما زالت تنحدر كان عهد المماليك يشترون بالمال،هم الملوك الذين يتصرفون بالأموال وبالرجال.

نال يحيى الوزارة أولا،أم تكن وزارة بالمعنى الذي تفهمه اليوم،بل كان منصبه نوعاً من الوكالة عن الخليفة، هذه الوكالة تتسع أو تضيق ،باتساع صدر الخليفة وضيقة ،وميله إليه أو ميله عنه.

وكان هارون رجلاً قوياً مقتدراً،ولكنه كان عاطفياً،فكانت أعماله كلها ارتجالات ومفاجآت،لما بشره يحيى بالخلافة هو الساعي له،والمدافع عنه،وذكر أنه لو لايحيى لكان تنازل عن ولاية العهد،فمنحه تفويضاً مطلقاً،زاده السنة التالية وضاف الخاتم مع

الوزارة،وتسرب أولاده ،وتداولوا الولايات والمناصب الكبرى ،ويحيى يتخلى عن تبعات الحكم لأولاده،فترك الخاتم أولاً،ثم صار لجعفر ،وغدا يحيى بمثابة المستشار للخليفة والمرشد لأولاده،وما يتم شئ إلا برأيه.أراد الرشيد نقل الوزارة قال ليحيى:

إني أريد أجعل الخاتم لأخي الفضل،جعفر،فكتب إلى ولده الفضل:

قد أمر أمير المؤمنين تحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك .

فكتب الفضل:

قد سمعت مقاله أمير المؤمنين في أخي وأطعت،وما انتقلت من نعمه صارت إليه.وما عن رتبه طلعت عليه.

قال جعفر:لله اخي،ما أنفس نفسه، وأقوى العقل فيه.

وولى الرشيد الفضيل خرسان، فوجه إليها وقام بها، في الدوله دائرة خاصة سرية لمراقبة أعمال الولاة،وإخبار الخليفة بها، لايعرف الولي شخصة ولاسلطان له عليه،فكتب صاحب البريد في خرسان إلى الرشيد بخبره،ووصل الكتاب ،ويحيى جالس بين يديه.

إن الفضل بن يحيى متشاغل بالمصير وأدمان اللذات .فلما قرأه الرشيد رمى به إلى يحيى وقال له:

اقرأ واكتب إليه بما يردعه عن هذا.

ومن هنا يظهر تسلط البرامكة عليه ،لو أراد يقيم حكم الله على والٍ يشتغل عن الرعيه بلذته .

وكتب إليه يحيى كتابة أب إلى ولده المدلل:

انصب نهاراً في طلاب العلا واصبرعلى فقد لقاء الحبيب

حتى إذا الليل أتى مقبلاً واستترت فيه وجوه العيوب

فكابد الليل بما تشتهي فإنما الليل نهار الأريب

كم من فتى تحسبه ناسكاً يستقبل الليل بأمر عجيب

أرخى عليه الليل أستاره فبات في لهو وعيش خصيب

ولذة الأحمق مكشوفة يسعى بها كل عدو رقيب

والرشيد ينظر إلى مايكتب فقال ؟

بلغت يا أبت.

وأقر هذه الخطه الخبيثة التي اختطها لابنه:لم يأمر بتقوى الله في السر وفي العلن ،واجتناب الفواحش،ولم يلقنه خشيه الله بل خشيه الناس ،على أن الفضل قد صلح،ولم يعد يفارق المسجد،لما وصلو إلى مدينة بلخ وفيها المعبد الذي كان أجداده سنده وكانوا يوقدون فيه النار كانوا يعبدونها من دون الله،أمر اللضل بهدمه،فهدم ناحية منه وأقام فيها مسجد،وولى جعفر نيابه مصر،فولى عليها رجلاً ولم يخرج إليها بنفسه.

ثم ولاه رئاسة الحرس ،ولما ضربت الشام واختل أمرها دعا الرشيد جعفراً فقال له:

إما أن تخرج أنت،أو أخرج انا.

فقال جعفر:بل أقيك من بنفسي.

فشخص جعفر في جيش ضخم،فأخمد الفتنة وسن سنة سيئة مارأيت قبله من صنعها،فجاء جعفر في هذه الحملة،فصادر الأسلحة وأدوات القتل،ومدحه منصور لما توجه إلى الشام بقصيدة:

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة فهذا أو أن الشام تخمد نارها

إذاجاش موج البحرمن الَ برمك عليها جنت شهبانها وشرارها

رماها أمير المؤمنين بجعفر وفيه تلاقى صدعها وانجبارها

فإن أمير المؤمنين بنفسه أتاكم وإلا نفسه فخيارها

هو الملك المأمول للبر والتقوى وصولاته لا يستطاع خطارها

وزير أمير المؤمنين وسفيه وصعدته والحرب تدمى شفاره

ومن تطو أسرار الخليفة دونه فعندك مأواها وأنت قرارها

وفيت فلم تغدر لقوم بذمة ولم تدن من حال ينالك عارها

إذاما ابن يحيى جعفر قصدت له ملمات خطب لم ترعه كبارها

ولما عاد دخل على الرشيد قبل يديه وقال:

الحمدلله يا أمير الذي آنس وحشتي ،وأجاب دعوتي،وأكرمني بقربه وامتن بتقبيل يده،وردني إلى خدمته،فأعلم أنها كانت بمعاصي وخطايا أحاطت بي،الحمدالله الذي عصمني في حال الغيبة وأمتعنى بالعافية،وعرفني بالإجابة ومسكنى بالطاعة،ولم أقدم إلا عن اذنك وأمرك.

والله ياأمير المؤمنين لقد عانيت مالم تعرض لي الدنيا كلها لاخترت عليها قربك.... ولم يقصر يحيى على ولديه ،بل فتح بابها لأولاده جميعاً،بل للبرامكة كلهم.

فكان موسى ينتدب للمهمات العسكرية.هاجت الفتنة الأولى في الشام انتدب لها موسى ،فخرج إليها ومعه القواد والأجناد ،فسكنت الفتنة ،فقال إسحاق يخاطب يحيى ويصفه بأنه حامي الإسلام ،وقد أقام في بغداد وأولاده في الأطراف:

من بلغ يحيى ودون لقائه زأرت كل خنابس همها

وقال غيره:

قد هاجت الشام هيجاً يشيب رأس وليده

فصب موسى عليها بخيله وجنوده

هو الجواد الذي بَذَّ كل جود بجوده

أعداه جود أبيه يحيى وجود جدوده

و(محمد) أخو يحيى ولاه الرشيد حجابته،قسم بلاد الخلافة كلها بين جعفر وفضل،كما قسم المهدي من قبل بين ولديه،ثم عقد ولاية العهد لوالديه الأمين والمأمون ،ضم الأول إلى الفضل،والثاني إلى جعفر .

وتوجه الفضل إلى خرسان،فأحسن السيرة،وبنى المسجد،واتخذ جنداً من العجم ،وجهز معهم جيشاً بلغ نصف مليون جندي لهم وقيود ورواتب،وقدم بغداد منهم ،وفي ذلك يقول مروان :

ما الفضل إلا شهاب لا أقول له عند الحرب إذا ما تأفل الشهب

أثبت خمس مئين في عدادهم من الألوف التي أحصت لك الكتب

يقارعون عن القوم الذين همُ أولى بأحمد في الفرقان إن نسبوا

وقال سَلْم :

وكيف تخاف من بؤس بدار تكنِّفها البرامكة البحور

وقوم منهم الفضل بن يحيى نفير ما يوازنه نفير

له يومان يوم ندى وبأس كأن الدهر بينهما أسير

إذا ما البرمكى غدا ابن عشر فَهِمَّتُه وزير أو أمير

و أسوق له خبر ما ناله قائد من صغار قواده هو إبراهيم ،فخرج معه وهو كاره للخروج.

(قال إبراهيم):

دعاني يوماً،فدخلت ،فلما صرت بين يديه سلمت فما رد علي،كان مضطجعاً فا ستوى جالساً فقال لي يفرُجْ رَوْعُك فإن قدرت تمنعني منك.

فذهبت وجمعت خراجها وجئته ،فوهبه لي وزادني ،فعاد إبراهيم إلى بغداد بسبعة ملاين !. بمثل هذا الكرم كانوا يمتلكون القلوب، هي أموال الله يتصرفون فيها، يجمعون المال من الآف المؤلفة ليعطوها لرجل واحد .

ولما رجع إلى بغداد خرج الرشيد لاستقبالك ومعه القواد والكتّاب والأشراف ،فجعل الفضل يعطي الرجال ألف ألف، فكان ماوزعه في ذلك اليوم شيئاً يفوق الوصف،وقال فيه مروان:

إذا الناس رموا غاية الفضل في الندى وفي البآس آلفوها من النجم أبعدا

سما صاعداً بالفضل يحيى وخالد إلى كل أمر كان أسنى وأمجدا

وكان يحيى في منصب المستشار للخليفة والموجه للدولة.

وما زالت دولة البرامكة في صعود،حج الرشيد ومعه ابناه الأمين والمأمون ،وحج معه يحيى ومعه ابناه جعفر والفضل فلما صاروا في المدينة جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطى الناس عطاءهم،والعطاء نوع من الضمان الإجتماعي ،فكان أهل المدينة يسمون ذلك العام عام الأعطية وفي ذلك يقول ابن مناذر:

أتانا بنو الأملاك من آل برمك فيا طيب أخبار ويا حسن منظر

لهم رحلة في كل عام إلى العدى وأخرى إلى بيت العتيق المعطر

إذا نزلو بطحاء مكة أشرقت بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

ولما انتهى الحج استعفى يحيى الرشيد من الولاية فأعفاه،واستأذنه في الإقامة بمكة فبقى فيها وتخلى عن الدنيا.

فصنع كل ماينبغي أن يصنعه كل عاقل،وبقى في مكة شهوراً،عاد إلى بغداد حين سمع أن الرشيد أطلق يعقوب من سجنه.

وذلك أن يعقوب ،كان وزيراً للمهدي ،ولمع نجمه حتى قال فيه بشار:

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود

شن غضب عليه المهدي،وسجنه في بئر فبقى فيها وحده خمس عشرة سنة لايرى ضوءاً،إلا أنهم يدلون كل يوم رغيفاً وكوز ماء،فوقفوه بين يدي الرشيد وقالوا:

سلِّمْ على أمير المؤمنين.

فقال :السلام عليكم يا أمير المهدي.

قال:لستُ به.

قال :السلام عليكم يا أمير الهادي.

قال:لستُ به.

قال :السلام عليكم يا أمير الرشيد.

قال:نعم.قال له:

والله لم يشفع فيك عندي أحد،ولكنى حملت البارحة ،فرحمت ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك.

وأنعم عليه وأحسن اليه.واشتم منه يحيى رائحه الخطر على دولته،فأخذ يكيد له ،وفهم ذلك يعقوب فآثر الفرار،فاستأذن الرشيد في الذهاب إلى مكة ،فأذن له ،وبقى فيها حتى مات أوتى البرامكة من المواهب، وجمعوا السيادة،وسبقوا به الأقران.

فكان جعفر في عمله وفضله ،وكانت توقيعاته مثلا في البلاغة.

التوقيعات هي ما يكتب الأمير على القصص التي ترفع إليه،يأمر لصاحبها بعطاء أو منع .

رفعت إليه شكوى من عامل من عماله،فوقع فيها إلى العامل :((قد كثر شاكوك،فإما اعتدلت وإما اعتزلت)).

أربع كلمات أجملت قصته وأوضحت غلطته.واعتذر رجل فقال له:((قد أغناك الله بالعذر منا،وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك)).

ولم يعتمد حلاوه اللفظ ولو كان فيها ضياع الحق،بل كانت توقعات جعفر تجمع اللفظ والمعنى.والعلم والأدب ،وقع يوما في حضرة الرشيد زيادة عن الف توقيع،تقولون:من أين له الفقه؟من الإمام أبو يوسف ،ضمه إليه أبوه.

وكان الأستاذ الأول أبوه يحيى ،كان يقول له ولإخوته:اكتبو أحسن ما تسمعون،كانوا يعملون بهذه النصيحة،فكان حديثهم صفوة الصفوة ولباب الباب.

وكان يحيى من العقلاء الكرماء البلغاء.ومن كلامه:((ثلاثة تدل على عقول أربابها :الهدية والكتاب والوسول)).

قلت :بهذا ضاعت خزانة الدولة،ثم ضاعت الدولة كلها،وهي لعمرى شر نصيحة،ويمسك حيث يؤثر الشرع والإمساك .

(ومنه):ذكر النعمة من المنعم تكدير.

(ومنه):النية الحسنة مع العذر الصادق .

(ومنه):أذا أدبر الأمر.

وولى الرشيد رجلاً ولاية،فلما دخل عليه يودعه كان عنده جعفر ويحيى فقال لهما :أوصياه فقال له يحيى :وفر.

وقال جعفر:أنصف .

وقال الرشيد:اعدل.

وشهد المأمون،وهو من هو في البلاغة والعقل،انه لم يبلغ مبلغ يحيى من الكفاية والبلاغة.

أما كرمهم فقد جاوزوا به كل سابق،أما مَنْ عمد إلى مال الأمة الذي اؤتمن عليه فبسط به يديه،وكما كان يفعل أكثر الخلفاء والأمراء،أما من صنع ذلك فقد جنى جناية وارتكب جرماً وكان هو واللص سواء،ويعمر دنياه بخراب دينه،ويبيع دينه بدنيا غيره فيكون أخسر الناس .

فمن أخبار هذا الكرم العجيب:

أن إبراهيم الموصلى الذي أخذ من أموال الأمة،بل أخذاه بأصوات لحناها.حرم الخلفاء أصحاب الحق في هذا المال،وانفقوه في لذات أنفسهم،ومن بعده من عرفنا من المستعمرين.

جاء إبراهيم إلى يحيى يشكو إليه فقال له:

ويحك ما أصنع بك ؟ليس عندنا في هذا الوقت شئ،فيه جلاً بد جاءني خليفة صاحب مصر،يسألني أن أستهدي صاحبه شيئاً،أخبره أنها قد أعجبتني فإياك أن تنقصها عن ثلاثين ألف وأنظر كيف تكون.

قال إبراهيم :ماشعرت إلا بالرجل وأفاني فساومني بالجاية،

فقلت :لا أنقصها عن ثلاثين ألف فلم يزال يساومني ،فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها فبعتها.

فصرت إلى يحيى فقال لي :

كيف صنعت في بيعك الجارية؟فأخبرته:

والله ماملكت نفسي أن أجبن إلى العشرين ألفاً حين سمعتها.

قال:إنك لخسيس،فخذ جاريتك وهذا خليفة صاحب فارس ،فإذا ساومك فلا تنقصها لابد أن يشتريها منك.

فجاءني الرجل ،فلم يزل يساومني حتى أعطاني ثلاثين ألف فضعف قلبي عن ردها ولم أصدق بها،ثم صرت إلى يحيى فقال:بكم بعت الجارية؟فخبرته فقال:

ويحك ألم تؤدبك الأولى؟

قلت:ضعف قلبي والله عن ردها .

قال:هذه الجارية جاريتك فخذها إليك.

روى هذه القصة ابن خلكان،ولو وقعت في أيامنا هذه فساد هذه الأيام لأحيل كل من اشترك فيها إلى محكمة الجنايات؛ودخل عليه الأصمعى فقال له:

يا أصمعي هل لك زوجة؟

قال:لا.

قال:فجارية؟ قال:لا.

فأمر بإخراج جارية في غاية الحسن والجمال .

(قال الأصمعي)فقال لها:قد وهبتك.

وقال لي:يا أصمعي خذها لك .فلما رأت الجارية ذلك بكت وقالت:

ياسيدي تدفعني إلى هذا مع ماترى من سماجته وقبحه؟

فقال لي:هل لك أن أعوضك عنها؟

وأعاد الجارية وقال لي:

فأردت أن أعاقبها ثم رحمتها.

قلت :هلا أعلمتني فأسرح لحيتي؟

فضحك وأمر لي بألف.

وكان يحيى إذا ركب يعطي كل من تعرض له ،فركب وتعرض له رجال فقال له:

يا سمىَّ الحصور يحيى أتيحت لك من فضل ربنا جنتان

كل من مر في الطريق عليكم فله من نوالكم مائتان

مائتا درهم لمثلي قليل هي منكم للقباس العجلان

قال يحيى :صدقت،وأمر بحمله إلى داره،فلماء رجع من دار الخليفة سأله عن حاله،فذكر أنه تزوج وقد أخذ بواحدة من ثلاث:اما أن يؤدي المهر أربعة آلاف،وأما أن يطلق .

فأمر يحيى بأربعة آلاف للمهر ،وأربعة آلاف لثمن منزل .

فأخذ عشرين ألفاً بثلاثة أبيات لامعنى لها ولامبنى!

وقال محمد الوقدي:

كنت حناطاً بالمدينة في يدي مائة ألف للناس أضارب منها فتلفت وضاعت،وأنست بالخدم وسألتهم أن يوصلوني إليه فقالوا:

اذا قدم الطعام إليه لم يُحجب عنه أحد،فلما حضر طعامه أدخلوني فأجلسوني معه فسألني :

من أنت ؟وما قصتك؟

فلما رفع الطعام وغسلنا دنوت منه لأقبل رأسة فاشمأز،فلما صرت ،لحقني خادم معه ألف دينار فقال :

الوزير يقرأ عليك السلام ويقول :استعن بهذا على أمرك وعد في اليوم الثاني ،فأخذته وانصرفت وعدت في اليوم الثاني فجلست معه فيسألني كما سألني في اليوم الاول.

فلما رفع الطعام دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز،فلما صرت ،لحقني خادم معه ألف دينار فقال :

الوزير يقرأ عليك السلام ويقول :استعن بهذا على أمرك وعد في غد.

فعدت في اليوم الثالث كما أمر ،فأعطيت مثل ذلك ،فلما كان اليوم الرابع أعطيت مثله وتركني أقبل رأسه وقال :

إنما منعتك لأنه لم يكن وصل إليك معروفي ،فالآن قد لحقك بعض النفع مني ،ياغلام أعطه مائتي ألف يقضي دينه بمائة الف ويصلح شأنه بمائة الف ثم قال:

الزمني وكن في داري .

فقلت:أعز الله الوزير.

قال:قد فعلت .

وأمر بتجهيزي ،فشخصت إلى المدينة وقضيت ديني ثم رجعت إليه .وكان له كاتب يختص بخدمتة ،كان له صديق قد اختلت أحواله وضاقت يده،فعمد كيسين كبيرين فجعل في أحدهما ملحاً وفي الآخر أشناناً مطيباً وكتب معها رقعة :

لو تمت الإدارة لأسعفتُ بالعادة ،ولكن قعدت القدرة عن البغية .

فلما حضر يحيى عرض عليه كتابه الهدايا حتى الكيسين والرقعة،فاستظرفها وأمر يملأ الكيسان مالاً ويَرَدا عليه.

ومضى أولاده على سنته هذا الذي تعود الناس أن يسموه كرماً،

فكيف وهو أموال الناس التي ائتمنهم الله عليها؛إنه لايسمى إلا السرقة بأبشع صورها .

هذا جعفر يبذل أربعين ألف في(فرج..)جارية ،وأربعون ألفاً من اهل بغدادا،لايكفيهم حتى يهب المال لمن لاحق له.

لم يكمل البحث ،فضعت المهمة وضاعت الأصول ،فآثرت أن انشره ناقصاً .

معن بن زائد

كانت أجمل صفتين عند العرب هي الشجاعة و الكرم ، أما الشجاعة فلأنهم كانوا يعيشون في البادية ولا يحكم بينهم أحد فمن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب. و أما الكرم فلكرمهم على الغرباء و استضافتهم و إطعامهم. رسخت هاتن الصفتان في نفوسهم حتى صارتا شعار العربي و أمارته، و تغنى بها الشعراء و بقيا فينا إلى اليوم.

و أحب أن تعلمو أن الكرم الجاهلي هو من أضاع ملكنا.

الحديث اليوم عن رجل جمع هاتين الخلتين،فكان فيهما مثلاً مضروبا و هو القائد العربي : معن بن زائد الشيباني.

لحياته ثلاث مراحل :

مرحلة في ذمة بني أمية،كان منقطعاً إلى(يزيد بن عمر بن هبيرة)أمير العراقين. و لما حاصر المنصور واسط وقف في وجهه و دافع عنها و أراه العجب فلما آلت الخلافة إلى بني العباس اختفى و طلبوه فلم يصلو إليه.

يوم فاجأت طائفة من مارقة خرسان المنصور بثورة عارمة، جبهوه بها و هم يحفون به للتسليم عليه، كادوا يقضون عليه، و كان معن حاضراً متنكراً، فلما رأى ذلك، رفع لثامه و رمى بنفسه عليهم كالبلاء النازل،أعمل فيهم سيفاً كأنه شعلة من جنهم حتى شق الطريق إلى المنصور فحماه منهم و فرقهم عنه.

خرج المنصور، و دعا هذا البطل المجهول الذي انقذه من الموت قال: من أنت؟

قال : أنا من تطلبه بذنبه يا أمير المؤمنين، معن بن زائدة،و ها أنا بين يديك، فاستحيا المنصور و شكر له هذه اليد و أكبرها، و قربه من ذلك اليوم حتى صيره من أكبر قواده.

و كان يتنقل في الولايات، فولى اليمين و سجستان و أعمالاً بينهما، و كان حيثما سار ينثر البطولات و العطايا، حتى صار طائي عصره و جواد زمانه، ووقف الشعراء قصائدهم عليه حتى أثار على نفسه حسد الخلفاء، و لولا ما كان من حضور البديهة و حسن الخلق لنال منهم أذى.

أراد أعرابي أن يمتحن كرمه و تواضعه، فوق عليه في مجلسه فقال :

أتذكر إذ لحافك جلد شاة و إذ نعلاك من جلد البعير ؟

فغضبت الحاشية، و هموا به، و لكن معناً كفهم زو قال: أذكر ذلكيا أعرابي ولا أنساه.

قال: فسبحان الذي أعطاك ملكاً و علمك الجلوس على السرير

قال: سبجانه و تعالى.

قال: فلست مسلماً ما عشت يوماً على معن بتسليم الأمير

فهاج الحاضرون، و لكن معناً منعهم و قال: يا أعرابي، السلام سنة ، وأنت حر أن تسلم على الأمير أو لا تسلم.

قال: سأرحل عن بلاد أنت فيها ولو ضاق الزمان على الفقير

قال: إن جاورتنا أهلا و مرحباً ، و إن رحلت فبالسلامة.

قال: فجد لي يا ابن ناقصة بشيء فإني قد عزمت على المسير

قال: قليل ما أتيت به وإني لأطمع منك بالشيء الكثير

قال: زيدوه ألفا.

قال: سألت الله أن يبقيك ذخراً فما لك في البريه من نظير

قال: كم اعطيتموه على هجائه في؟ قالزا: ألفين.قال: أعطوه على مدحته ثلاثة.

و كانت أنمة معن أن دس له الخوارج ناساً منهم، فدخلوه مع عمال يعملون له فقتلوه، و قد انتقم له ابن اخيه البطل (يزيد بن مزيد).

القاضي المتأنق

يبدأ هذا الحديث في قرية منفردة عن القرى، تطل على البحر المتوسط، من جهة الغرب من ظهور الأندلس،مع رجل يفكر كيف يصل إلى المدينة العظيمة التي يسمع بها ولم يرها، إلى قرطبة ليشكو إلى القاضي عدوان أن جاره على أرضه.

و وجد من يدله على الطريق، حتى إذا وصل به إلى أبواب قرطبة، رأى الفخامة و العظم و أزدادت حيرته و لم يدري أيان يسلك. لحظ الناس حيرته فأقبلو متطوعين لدلالته، سألهم أن يرشدوه لمحكمة فلما دخل سأل: أين القاضي؟ فوقفوه أمام القاضي، فإذا هو يرى شاباً بزي الأحداث له جمة مفرقة (شعر طويل مفروق) و عليه رداء ملون معصفر_كالقمصان الملونه التي يلبسها شباب اليوم و الكحل ظاهر في عينيه، وأثر الحناء في يديه.و في رجله نعل صرارة، فتوقف و رجع يقول لهم: دلوني على القاضي. قالوا: هذا هو القاضي وأشاروا إليه فقال: إني رجل غريب، وأنتم تستهزئون بي، أنا أسألكم عن القاضي وأنتم تدلونني على رقاص خليع !

تركهم و ذهب إلى مسجد قرطبة أوسع مساجد الإسلام، وكان اليوم الجمعة فقعد الرجل ينتظر حتى إذا كانت الصلاة، ودنت الخطبة، رأى الناس المزدحمين يفتحون الطريق للخطيب فنظر فإذا صاحبه الذي حسبه رقاصاً،وقد أقبل بزيه الذي رأه عليه، حتى صعد المنبر فخطب خطبة من أروع الخطب، وأبلغها مقالاً، و أصدقها لهجة، وأحفلها بكل علم نافع، و وعظ بالغ، ثم أمّ الناس فقرأ قراءة متدبر متفهم، من قلب خاشع، فبلغ من نفسه بخطبته و قراءته ما لم يبلغه الخطباء و الأئمة أصحاب العمائم الكبار، و الجيب الواسعة، و اللحى العريضة.

فلما قضيت الصلاة أقبل على جاره يسأله : من هذا الذي يلبس لباس المغنيين و يتكلم كلام الزاهدين؟ فيعجب الناس و يقولون: ألا تعرفه؟ فيقول: لا. و لست من أهل هذا البلد.فيقولون: هذا محمد بن بشير قاضي قضاة الأندلس، و شي الإسلام فيها، و طيب مسجدها الأعظم.

فكان مما حدثوه من مناقبه أنه كان لديه دعوى الحكم، على واحد من العامة، وكان يظن أن من علو مكانته و صلته بالملك ما يمكن له عند القاضي، و إذا بالقاضي يقول له: قف بحذاء خصمك ولا تتكلم، حتى أكون أنا الذي أسألك. فلما أدلى بدعواه. قال للمدعي عليه: ما تقول؟ قال: ليس علي شيء أصلح الله القاضي.

قال القاضي للمدعي: هات بينتك. قال: ألا يكفيك قولي؟ قال: لو كفاني ما سألتك البينة. قال: أمهلني.

و ذهب العم إلى الحكم صاحب الأندلس، الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الدال الأموي، فقال: ألست تعرف أن لي على فلان كذا؟ قال: بلى . قال: أتشهد لي؟ قال: أنت تعرف القاضي و أخاف ألا يقبل شهادتي! قال: كيف و أنت الذي وليته القضاء؟ قال: هو ما أقول لك. قال: امض بها إليه و أنا أخاف ألا يقبلها.

فلما كان يوم المحاكمة، و قال له القاضي: بينتك. أبرز له شهادة الملك. فقال القاضي: أنا لا أقبل شهادتك.

فاستشاط العم غضباً، و جن جنونه، وذهب إلى ابن أخيه، وقال: أنت ملك البلاد، والقاضي رد شهادتك! ماذا بقي لك من الكرامة و السلطان؟

و ضحك الحكم وقال: ألم أُقل لك يا عم؟ إن القاضي رجل صالح لا تأخذه في الله لومة لائم، عمل ما يجب عليه، فأحسن الله جزاءه. قال: فأعزله. قال: أعوذ بالله. أنا أول المسلمين في عزل مثله؟ أنا عملت ما علي و شهدت لك، و للقاضي أن يقبل الشهادة أو يردها.

ولما سئل القاضي : لماذا رددت شهادته؟

قال للسائل: يا جاهل والله ما رددتها لنقص في عدالته، و لكن لابد من سؤال المدعي عليه عما يقوله في الشاهد، فمن كان يجرؤ على الطعن في الشاهد لو قبلتها ؟

يا أيها السادة.. انظروا كيف كان ملوكنا وكيف كان قضاتنا.

قال: فكيف يتخذ هذا الزي؟ قالوا: لقد سئل هو عن ذلك. فقال: حدثني أنس بن محمد بن المنكدر، و كان سيد القراء، كانت له لمة (شعر طويل) و أن هشام بن عروة فقيه المدينة (ابن عروة بن الزبير الذي حدثكم عنه) كان يلبس المعصفر و أن محمد ابن القاسم كان يلبس الخز.

فلما سمع ذلك غدا ورفع إليه دعواه، فرأى من عنده النزاهة و الحزم، و علم أنه قد يكون العالم العابد المتبتل في زي رقاص أو مغن. وقد يكون الدجال المحتال الختال في زي عابد متبتل، وأن العبرة بالنيات والأعمال لا بالصور و الأشكال، وأنه كان ضيق النظر محدود الفكر، حين وقف عند ظاهر الزي، ولم يمض حتى يختبر ما وراءه من المعاملة و بالفعل.

خطيب الزهراء

أحدثكم اليوم عن قاض كبير، كان قاضي الجماعة في الأندلس، وخطيبها الأول، و عالمها الأكبر، وكان يهزل حتى ليأتي بالعجائب من النكات، ولكنه إذا جد لجد.

نحن الآن في الاندلس، في عصر لا أزهى منه ولا أبهى، عصر الملك الكبير، أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر، باني الزهراء.

و قد جمعت الدنيا بعظمتها و بائها في الأندلس، و جمعت الأندلس في قرطبة، و جمعت قرطبة في ذلك اليوم في القصر، وأعد لاستقبال وفد قيصر، الذى قدم من القسطنطينية.

تطلعت نفوس الخطباء إلى الكلام في هذا المقام، و تمنى كل منهم أن يشير إليه الخليفة بالرد على خطبة رئيس الوفد، و لكن نالها الإمام أبو علي القالي البغدادي ضيف الأندلس.

وقام أبو علي ليتكلم فارتج عليه، و انقطع فما قدر على كلمة، وكاد يضطرب الأمر ، وإذا بشاب يقوم من بين العلماء، فيقف على المنبر دون القالي بدرجة، ويرتجل خطبة، لم يسمع الناس مثلها، هز فيها القلوب و العواطف، وجاء بشيء عجب، نبه الليفة إلى مكانه، فسأل ابنه الحكم عنه، فقال: هذا منذر بن سعيد البلوطي، قال: لأرفعن منه فإنه لذلك أهل. فولاه القضاء و خطابة المسجد الجامع. ثم لما بنى مدينة الزهراء، و كان الخليفة قد استغرق في الإشراف على بنائها حتى قالو: إنه أضاع صلاة الجمعة مرة. وبنى فيها قاعة جعل فيها قرامدها من الذهب و الفضة، وجش الناس فيها لافتتاحها، و جعل ابتداء حفلات الافتتاح بصلاة الجمعة، وكان الخطيب منذر بن سعيد فصعد المنبر فبدأ الخطبة بداية عجيبة، بقوله تعالى:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

و وصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، ذم فيه السرف والترف، وإضاعة أموال الأمة في زخرفة القصور، ووصل بقوله ودموعه تنحدر من لحيته: والله يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن الشيطان_ أخزاه الله_ يتمكن منك هذا التمكن، حتى أنزلك منازل الكافرين، فجعلت قوامد بيتك من الذهب و الفضة.

و ما زال في مثل هذا، حتى نسى الناس الخليفة و نسوا الاحتفال، و صغت القلوب إلى الله، وصفت النفوس و ارتج المسجد بالبكاء.

فلما قضيت الصلاة انصرف الخليفه مغضباً، وقال لابنه: أرأيت جرأته علينا، والله ...

ماذا تروني يا سادة فاعلاً معه، إن لم يفعل إلا أن قال: والله لا صليت خلفه الجمعة أبداً.

قال له ابنه: وما يمنعك من عزله؟ فرجع الخليفة إلى نفسه وقال: ويحك أمثل منذر بن سعيد في فصدضله و ورعه و علمه لا أم لك يعزل في إرضاء نفس ناكبة عن سبيل الرشد؟ إني لأستحي أن أجعل بيني و بينه إماماً غيره، ولكنه قسم سبق.

وأمر بنقض الذهب والفضة من القصر.

يا أيها السادة: إذا اردتم أن تعرفوا من أين جاءته هذه الهيبة في الصدور، وهذه الجلالة في النفوس، فاعلموا أنها ما جاءت إلا من إخلاصه لله و وفي منّه و عبادته و اتصاله بالله.

قحط الناس في أواخر مدة الناصر، فأمر القاضي منذر بن سعيد بالخروج إلى الإستسقاء فتأهب لذلك واستعد، وصام بين يديه(أي قبله) تلاثة أيام، و استغفر ربه و احصر حقوق الناس عليه فردها، وخرج وخرج معه الناس جميعاً.

وقال لصديق: اذهب فانظر ما يصنع أمير الؤمنين؟.

فعاد يقول: ما رأيناه قط أخشع منه في يومنا هذا، إنه لمنتبذ حائر لابس أحشن الثياب، يبكي و يستغفر ويقول: يا رب هذه ناصيتي بين يديك، فإن أذنبت أتراك تعذب الرعية بذنبي، وأنت احكم الحاكمين و أنت القادر علي لن يفوتك شيء مني .

فتهلل وجه القاضي، وقال لغلامه: اذهب فاحمل الممطر(المشمع) فقد أذن الله بالسقيا، إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء.

و قام يدعو، والناس يضجون بالدعاء والتوبة والاستغفار، فما انصرف حتى امتلأت السماء بالغيوم و بلل الناس بالمطر.

هكذا كان قضاة المسلمين.

الملك الصالح

وهذه سيرة آخر لا تعرفونه، و ما أكثر من لا تعرفونه من عظماء الإسلام، هو الملك الحليم مظفر بن محمود، من ملوك أحمد آباد في الهند.

ولد يوم الخميس 20 شوال سنة 875 هـ في الجمرات، و نشأ نشأة عالم عابد، في أسرة أكثر ملوكها صالحون متعبدون، وقرأ ما كان معروف من كتب العلم، و برع في الحديث، كان قد تلقاه عن المحدث جمال الدين المبارك الحميري الحضرمي، و مجد الدين الإيجي، وشارك في العلوم والفنون كلها حتى الموسيقى، وكان خطاطاً جيد الخط، يتقن النسخ والثلث وخط الرقاع المعروف اليوم بالرقعى. و كان يكتب المصحف بيده و يبعث به إلى الحرمين و حفظ القرآن في شبابه، ومارس السيف والرمح والرمي، والفروسية والمصارعة، وأتقن الفنون الحربية.

وكذلك ترون أن في الهند المسلمة ملوكاً في ثياب فقهاء وعلماء و محدثين، رجالاً جمعوا الدينا و الدين، والعلم والعمل. وكان أسلافه كلهم على هذا الطريق و لكنه فاق أسلافه.

ولي الملك 3 رمضان سنة 917 وهو في الثانية بعد الأربين، وحكم إلى أن توفي في 2 جمادي الأول 932، فكانت مدة سلطانه خمس عشرين سنة، مرت على الناس مما رأوا فيها من عدله و سخائه، وحزمه وتقواه، وكأنها خمس عشرة يوماً.

وكان يتبع السنة، ويعمل بما حفظ من الأحاديث الصحيحة، وكان كثير الإنفاق في الخير، فسأل العلامة خرم خان وكانت له ثقة به، وقال له: لقد نظت فيما أنفقته فإذا أنا بين إفراط في صرف المال، وهو مال المسلمين، وتفريط منعه، فإذا سألني ربي عن ذلك فبماذا أجيب؟

و كان يحافظ على الوضوء دائماً، و على صلاة الجماعة و لم يقرب الخمر قط، ولم يقع لسانه في عرض أحد، وكان يعفو ويسامح، ويعطي و يجتنب الإسراف والتبذير. وكان مطلعاً على أخبار الناس، يقوم بما دق و جل من الشؤون بنفسه. و ربما غير زيه و رج من القصر ليلاً و نهاراً، يخالط الناس وهم لا يعرفونه، و يسمع ويرى ويطلع على ما يسيؤون فيه، وما يشكون منه، وكان يحيط الممالك المجاورة له، لا سيما الهندية المجوسية بشباك من جواسيسه و عيونه، فلا تخفى عنه خافية من أمورهم.

وكان في الحرب قائداً عبقرياً، إن لم يكن يحب خوض الحروب.

وكان يبني في الحرمين الأوقاف و يرسل إليهما المدد، و قد صنع مركباً شحنه بأثمن القماش وأرسله هدية هو و ما فيه إلى جدة، وبنى بمكة رباطاً فيه مدرسة و سبيل و مساكن، و وقفاً كبيراً، وكانت له في كل موسم صلات ضخمة يبعث بها إليهم.

و كان خبر موته عجيباً يدل على حسن الخاتمة، و على أنه من أهل الجنة.

خرج السلطان إلى الإستسقاء و بعد الاستسقاء بقليل اعتراه الكسل، ثم ضعف المعدة... وفي خلال ذلك عقد مجلساً، جافلاً بسادة الأمة و مشايخ الدين، فأخذ يشرح ما من الله عليه به من حسنة ونعمة، و يعترف بعجز شكرها.

وفي أواخر أيامه و كان يوم الجمعة، توضأ و صلى ركعتي الوضوء، و قام إلى بيت الحرم، واجمعت النسوة عليه يائسات باكيات يندبن أنفسهن حزنا على فراق لا اجتماع بعده، فأمرهن بالصبر المؤذن بالأجر، وفرق عليهن مالاً، ثم ودعهن. وخرج وجلس ساعة، ثم استدنى منه راجه محمد حسين المخاطب بأشجع الملك، وقال له: قد رفع الله قدرك بالعلم، أريد أن تحضر وفاتي وتقرأ علي سورة ياسين وتغسلني بيدك، وتسامحني فيه. وسمع أذانا فقال: أهو في الوقت؟ فأجاب أسد الملك: هذا أذان الاستدعاء لاستعداد صلاة الجمعة ويكون في الهند عادة قبل الوقت، فقال: أما صلاة الظهر فأصليها عندكم، وأما صلاة العصر فعند ربي في الجنة إن شاء الله تعالى، ثم أذن للحاضرين في صلاة الجمعة، وطلب مصلاة، و صلى و دعا الله سبحانه بوجه مقبل عليه، وقلب منيب إليه، دعاء مفارق للقصر، مشرف على القبر، ثم كان آخر دعائه: رب آتيتني من الملك و علمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات و الأرض أنت وليي في الدنيا والآخره توفني مسلماً و ألحقني بالصالحين. وقام من مصلاه وهو يقول: استودعتكم الله، واضطجع على سريره وهو مجتمع الحواس، و وجهه إلى القبلة وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وفاضت روحه والخطيب على المنبر يدعو له.

رحمه الله وأوسع له في دار النعيم المقيم.

العالمُ العاملُ

نحن اليوم مع إمام من الأئمة الكبار وقد مرَّ عليه 13 قرنًا يملأ الأسماع والعيون والقلوب آية ظاهرة وكان أعظم وعاظ الإسلام في تاريخه كله هو سيد التابعين الحسن البصري.

وكان الوعاظ يدعون القصّاص (الذي يقص القصص) وكان أكثرهم ممن يتخذ الدين حرفة والتقوى صناعة، يمخرقون على العامة بالمظهر الخداع والخشوع الكاذب لذل منع علي بن أبي طالب القصّاص من دخول المسجد في البصرة إلا الحسن البصري؛ لأنه يقول الحق ويسرد الحديث الصحيح، يزهد الناس في الدنيا وهو أول الزاهدين فيها، لا يزهدهم فيها، ليخالفهم إليها ويزاحمهم عليها.

وكان الحسن نفسه حربًا على هؤلاء القصّاص من علماء السوء ولقد قال فيهم كلمة الحق:

دخل المسجد مرة ومعه فرقد، فقعد إلى جنب حلقه، فأنصت يستمع إلى الحديث وهم يتكلمون في الدين والزهد ثم أقبل على فرقد فقال : يافرقد، والله ماهؤلاء إلاَّ قوم ملَّو العبادة وصعب عليهم العمل فوجدوا الكلام أهون عليهم فتكلموا!

هو الحسن بن يسار البصري، أبوه مولى زيد بن ثابت وأمه خيرة مولاة لزوجة النبي أم سلمة وكان من تمام حظه أن أمه كانت تغيب فيبكي فتعطيه أم سلمة من ثديها، فهل في التكرمة أكثر من هكذا !

وعاش بين الصحابة، فأقبل على العلم وكان من الفصاحة والبيان، وكلَّما قرأت كلامًا أكمل ولا أجمل ولا أنبل من كلامه ولقد شبهوه بكلام الأنبياء.

والعجب إن مناهج الأدب في المدارس لم تعن بدراسة هذا النمط من الكلام العالي المطبوع وإنما اشتغلت بالمتكلف المطبوع من الكلام الخالي من الروح والفارغ من المعنى.

وهاكم من كلام الحسن، لتروا لونًا من ألوان البلاغة في كلام مليء بالدين والعلم والنظر السديد.

هذه كلمة له فيها من المعاني مايشرح في كتاب ويصلح منهجًا للحياة.

سُئل عن الرجل الكامل، فقال: هو من يملك نفسه عند الرغبة والرهبة وعند الشهوة وعند الغضب.

وأنظروا إلى هاتين الصورتين البيانيتين يرسمها هذا العبقري البين بألفاظ معدودة، صورة في وصف أهل الخير والكمال من صحابة الرسول وصورة لعلماء السوء.

أما الأولى فقد قال له بعض القوم: أجزنا عن صفة أصحاب الرسول فبكى وقال: ظهرت منهم علامات الخير في السماء والسمة والهدى والصدق وخشونة ملابسهم بالاقتصاد وممشاهم بالتواضع ومنطقهم بالعمل ومطعمهم بالطيب من الرزق وخضوعهم بالطاعة لربهم.

أما الثانية: فإنه مر بباب الأمير ابن هبيرة فإذا هو بالقراء على الباب فقال: تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالسكم بمجالس الأبرار أما والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم، لكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيما عندكم.

ووصف الصالحين فقال: إن لله عز وجل عبادًا كمن رأى أهل الجنة في الجنة وكمن رأى أهل النار في النار، في الليل صافة أقدامهم، تسيل دموعهم، يلجأون إلى ربهم ربنا ربنا وأما النهار فحلماء علماء بررة أتقياء.

وكان الحسن صداعًا للحق لا يسكت عن إنكار منكر.

ومن صراحته أن عمر بن هبيرة لما ولى العراق، أرسل إلى الحسن وغيره فقال لهم : إن يزيد بن عبد الملك يكتب إليَ في أشياء إن اطعته فيها أغضب الله وإن عصيته لم آمن بطشه وغضبه، فهل ترون متابعتي إياه فرجًا؟

أهم ماقاله الحسن لعمر : إن تكن مع الله في طاعته يرد عنك كيد يزيد بن عبدالملك وإن تكن مع يزيد في معاصيه وكلك الله إليه.

وبعد فإن سيرة الحسن البصري أجل من يتسع لها حديث أو أحاديث رحمة الله عليه ورضى الله عنه واسأل الله أن يمن على أمة محمد فيجعل فيها علماء من أمثال الحسن.

الخليفة الكامل

أريد منكم أن تأخذوا الأقلام وتجمعوا أذهانكم وتكتبوا كل صفحة تتمنون أن يتصف بها الحاكم ... إذا اكتملت الصورة الخيالية التي صورتها، جئتكم بحقيقة واقعة لملك من ملوكنا تعدلها وقد تزيد عليها.

خليفة كان نموذجًا من النماذج التي لا ترى إلا مرة واحدة!

كان عالمًا، كاتبًا وكان دينًّا دين فعل لا دين قول وكان متواضعًا وكان يعيش عيش الفقر وبيده خزائن الأرض!

سنة 97 للهجرة

مرج دابق قرية في حما جهات حلب تسمى الآن باعزاز، كان فيها المعسكر الأمامي للجبهة الرومانية وفيها الخليفة سليمان بن عبد الملك ومعه الجيش ورجال الدولة ، وهو مرابط فيها منذ شتائين .

يقود الجيش المحاصر للقسطنطينية الذي يقوده أخوه مسلمة والمعركة لا أمل في ربحها وقد فشا الضر في الجيش وفشت الحمى. وعلا المنبر يخطب، فأصابته الحمى حتى حمل إلى بيته محمومًا، وعهد إلى ولده الصغير ولكن مستشاره رجاء بن حيوة حوله أن يعهد إلى عمر بن عبدالعزيز ومازال به حتى رضى بشرط أن يكون بعد عمر لأبنه يزيد بن عبدالملك.

وكتب العهد على ذاك وتمت المبايعة عمر بن عبدالعزيز خليفة الدولة الأموية التي تمتد من فرنسا إلى الصين .

بعد وفاة سليمان ألقى عمر بن عبدالعزيز خطبة العرش وأعلن فيها بيانه وسياسة حكومته وأنه لايملك التشريع؛ لأن الشارع هو الله وأنه إن خالف الشريعة وجبت مخالفته، وأن الخليفة ليس سيد الأمة ومالكها ولكنه خادمها.

إن عمر بن عبدالعزيز لم يذهب إلى زاوية ليقرأ الأوراد، بل قعد من فوره يملى الكتب إلى الأطراف ويضع البرنامج للحكومة الجديدة، وكان أول أمرًا أصدره هو فك الحصار عن القسطنطينية ثم أصدر تشكيلات سريعة في المناصب الكبرى، فعزل الأمراء الظلمة الطغاة وأعطى الفقراء العاجزين عن العمل رواتب تسريح دائمة، وعوض الباقين مالاً.

مر عليه ليلتان بلا منام فأغفى يستريح ساعة فدخل عليه ابنه عبدالملك

وقال: تنام ولا ترد المظالم؟

قال : يابني إنما هي ساعة .

رد عليه: ومن لك بأن تعيش إلى الظهر؟

أتدرون ماهي المظالم ؟

هي الأموال الطائلة والثروات العظيمة التي تملكه أسرته وحاشيته، لقد عزم على ردها إلى أصحابها إن عرف من هم أو إلى الخزانة العامة، وأصدر قانون (من أين لك هذا؟)

وبدأ في ذلك بنفسه! فقد كانت له عقارات أيام أسلافه من الخلفاء فرأى انه لم يكن لهم سلطة شرعيَّة عليها وأنها من أملاك الدولة.

وهذا هو المقياس الصحيح للدين، أن تبدأ بنفسك فتعظها، قبل أن تعظ الناس.

واحصى أملاكه فإذا هي كلها من عطايا الخلفاء، ولم يجد إلا عينًا في السويداء وفكر في أولاده؛ هل تكفيهم غلّة هذا العين، وهي 150 دينارًا في السنة فقط!

ثم ذكر أن الرازق هو الله وأن ماكان لك سوف يأتيك على ضعفك، وماكان لغيرك لن تناله بقوتك.

وتوجه إلى أمراء البيت الأموي وبين لهم أن ليس لهم من الحق في أموال الخزانة العامة أكثر مما للإعرابي في صحراء وأن مابأيديهم من أموال جمعوها من حرام ليس لهم وإنما هي لله وأرادهم على ردها فأبوا.

واستخدم أساليب اللين ليستجيبوا فلما عجزت معهم أساليب اللين عمد إلى الشدة وأعلن أنه كل من كانت له مظلمة وألف لذلك محكمة خاصة وبدأ يجردهم من هذه الثروات ويردها إلى أصحابها أو إلى الخزانة العامة.

وعم الأمن وهمدت الثروات، وشملت سعادة الناس واختفت مظاهر البذخ الفاحش ومظاهر الفقر المدقع وصارت هذه البلاد كأنها جمعية روحية، تعيش بالحب والود والإخلاص.

وإني لأرجع بكم 50 سنة إلى عهد عمر بن الخطاب.

كان عمر يفتش ليلاً كعادته فمر بقوم من الأعراب فسمع امرأة تقول لإبنتها: امذقي لبنك قالت البنت: ولكن منادى عمر نهى عن ذلك ردت عليها: امذقيه فإنه لايدري بك. قالت ماكنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء وإن كان عمر غائبًا فإن رب عمر حاضر.

هكذا كانوا ياسادة، كان الحاكم يرجو رضى الله ومصلحة الناس وكان الناس يتقربون إلى الله بطاعة الحاكم؛ لأنهم كانوا يرون طاعته في الدين.

فلما كان غد، سأل عنها فإذا هي يتيمة وزوجها لابنه عاصم فكانت خير امرأة وأفضلهم.

فولدت له بنتًا دعاها أم عاصم وأراد عبدالعزيز بن مروان الزواج فقال: دلوني على امرأة صالحة فدلوه عليها ، فتزوجها فولدت له عمر.

فعمر بن عبدالعزيز، كان ابن أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

ثم أن أباه أراد له الخير فسلمه إلى الإمام عبدالله بن عمر فربى بإشرافه.

نشأ في النعيم، وتقلب في فرش السعة ومابلغ الشباب، حتى كان من صدور العلم، ومن علماء العصر ومن صلحاء العباد.

ثم زوجه عبدالملك ابنته فاطمة. السيدة الأولى في ذلك العصر فهي بنت الخليفة عبدالملك وحفيدة الخليفة مروان وأخويها الوليد وسليمان كانوا الخلفاء من بعد وفاة والدهم ثم زوجها عمر وكانت جميلة وفية.

لقد عاش معها عمر بعد الخلافة وكأنهما أخوان ليس بينهما إلا مايكون بين الأخوين، ماذهب الحب ولكن ذهب فراغ الوقت وفراغ القلب فكانت خلافته نعمة على الناس نقمة على عمر وآل عمر.

وولى عمر المنية فجمع طائفة من علمائها وصلحائها فجعلهم مستشاريه.

هذه قصة حاكم ولو توهم متوهم أكمل صفات الحكام لما كانت إلا صفاته.

فصول هذا الكتاب كانت -في الأصل- أحاديث دأب علي الطنطاوي على إذاعتها حيناً من إذاعة دمشق منذ نحو نصف قرن كما قال في مقدمته للطبعة الجديدة من الكتاب:"كل ما في هذا الكتاب بقية من أحاديث كانت تُذاع لي من دمشق قبل أكثر من خمس و ثلاثين سنة (أي من وقت كتابة هذه المقدمة في عام ١٩٨٥).استمرت إذاعتها أعواماً. تعبت في إعدادها كثيراً. واستمتع بها واستفاد منها -من السامعين كثير. بلغت ثلاثمئة حديث أو نزيد. ضاعت فيما ضاع مما كتبت. وأرجو ألاّ يضيع عند الله ثوابها إن كتب الله لي -بكرمه- الثواب عليها. ثم يقول في المقدمة ذاتها: وكنت كلما أعددت حديثاً عن رجل من الرجال فتح لي الباب للكلام عن أقرانه وأمثاله. فحديث عن صلاح الدين يجر إلى آخر عن نور الدين. وحديث عن أبي حنيفة يدفعني إلى آخر عن مالك. لو أني استمررت أحدث عن أبطالنا و عظمائنا خمسين سنة. في كل أسبوع حديثاً.جاء مئة مثلي يصنعون مثل صنعي. لما نفدت أحاديث هؤلاء الأبطال العظماء. وأنا لست من المولعين بجمع الكتب ورصها في الخزائن لأزهى بها وأفخر بكثرتها. ولا أقتني إلا الكتاب الذي أحتاج إليه.أرجو النفع به أو المتعة بقراءته. وقد اجتمع لي -على هذا- في مكتبتي الصغيرة.هنا وفي دمشق. أكثر من تسعين مجلدة في تراجم الرجال والنساء. فلو أن في كل واحدة منها سيرة مئة منهم لكان من ذلك تسعة آلاف من سير العظماء".

إسماء الملخصين :

سلوى خالد ابكر
منيره محمد السيفي
شيخة تركي الجمعان
سهام علي الشريف
سارة عبدالله ال مهندر
وفاء علي السيفي
نور ناصر السبيعي
شهد يحي ياسين
سارة محمد ضاحي

مشرفة القروب :
وفاء سالم السيفي
رئيسة التدقيق :
ايمان حسين ابكر
تدقيق :
ايمان حسين ابكر
رئيسة التنسيق :
ريمان عمر خان
تنسيق:
اماني الجمعان